فيض الوهاب

فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب

بقلم

علامة عصره ووحيد دهره

الشيخ عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان

« الشهير بالقليوبى »

أحد علماء الأزهر الأعلام ، الخادم للسنة المطهرة
الذى تنتهى إليه أسانيد السنة جماء فى هذا العصر
والذى لم يسبقه أحد فى شرح جامع الأصول
لأحاديث الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم لابن الأثير

الجزء الأول

طبعة ثانية

سنة ١٣٨٦ هـ -- ١٩٦٧ م

دار القومية العربية للطباعة
١٦ شارع النزهة (ميدان الجيش)

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

سبحانك اللهم وجب وجود ذاتك . متصفة بالحياة والعلم وجميع صفاتك . فلا أول لذاتك ولا لصفاتك وأسمائك . أنت الأول بلا ابتداء . والآخر بلا انتهاء . أنت الصمد المنزه عن الكفء والوالد والمولود . الموصوف بالمخالفة لكل ما فى الوجود . أبدعت الكائنات بحكمتك . وأنشأت الموجودات أنواعا بقدرتك ، لحكم خصصت بإرادتك . أنت المنفرد بالإبداع والإيجاد . عجزت الأفهام عن ادراك كنهك وأبعدت غاية الأبعاد . نصبت آيات عظمتك البينات . وعجائب كبريائك فى الأرضين والسموات . فنطق الجماد ببيان صنعك البديع . ورفع النبات والحيوان أعلام فضلك الرفيع . فالعوالم بجزئياتها تنادى بأنك المعبود . مما طبعت عليها وفيها من آثار صنعك المشهود . فسبح بالفطرة بحمدك . وقدس بالتكوين لمجدك .

لذاتك ثبت كل أنواع الكمال . وبعده لك فيوض من الإحسان والإفضال . فكل ما فى الوجود من ذلك الفيض فوق التمام . فصار الكل من فضل الله ذى الفضل والأنعام — فسبحانك من إله غنى حميد . لا إله غيرك ولا معبود سواك .

وصلاة وسلاماً على مصدر التجليات الإلهية . ونقطة باء البداية الأصلية . ومهبط الأسرار الرحمانية . السابق فى الوجود نوره . ورحمة للعالمين ظهوره . أبرزته رحمة شاملة لوجودك الذى فتقت به رتق

الوجود. وخصصته بالمقام المحمود. وأقسمت بحياته فى كتابك المشهود - وأخذت على خيرة خلقك لحضرته قبل ظهوره المواثيق والعهود . وذكرت نعته وأصحابه فى الكتب المقدسة بأفضل مقامات النعوت . وشققت له من اسمك المحمود . فهو سرك الجامع الدال عليك . وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك . وهو السر السارى وماء جوهر الجوهرية الجارى . الذى أحييت به الموجودات . من جماد وحيوان ونبات . روح الأرواح ، وقلب القلوب ، وحياة الأشباح . أكمل خلقك على الإطلاق . وأقربهم لك زلفى عند التلاق . فكان أول الكائنات . وخاتم أفضل الموجودات - فاجعل اللهم دوام صلواتك التامات . وأزكى تحياتك العامات . وأشرف تسليماتك المباركات عليه بقدر كمالك وجلالك . صلاة تليق بك منك إليه . فأنت أهل لذلك . وكما هو أهله . وعلى آله وصحبه ومن اتبعه باحسان أبد الآبدين . وارزقنا اللهم حبك وحبه على الدوام . وأنعم علينا بدوام عطفه علينا . حتى يكون شهوده لنا ومشاهدتنا له فى الدنيا والآخرة فى كل لحظة وآن . أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين .

أما بعد : فيقول العبد الضعيف الفقير إلى الله الغنى اللطيف . المحدث بنعمة ربه المنان . عبد ربه بن سليمان بن محمد بن سليمان :

إنى رأيت حال الفرق الضالة المارقة من الدين، والخارجة عن إجماع خيار الأمة من علماء المسلمين . قد انتشر فى عصرنا الآن . وكاد أن يطغى على البرآء من البسطاء وضعفاء الإيمان . من المتعلمين وغير المتعلمين . تلك الفرق التى شاع ذكرها من القاديانية ، والاسماعيلية ، والبهائية وخاصة الوهابية . وكل ينشر لمبدئه الفاسد ويدعو لعقيدته الزائفة الضالة بالمال والجاه وبالسعى وراء ذلك كله بكافة الطرق

الشيطانية والحيل الإبليسية . ومن أعظم هذه الفرق الزائفة خطورة على المسلمين . الوهابية . راجع كتاب (سعادة الدارين) للسمنودى إذ الدعاة لهم ممن ينسبون أنفسهم لأهل العلم زوراً وبهتاناً . وفى الواقع ليس لهم أى صلة يتصلون بها فى أصل أصول الدين الإسلامى الذى يدعون التمسك بمبادئه . الكتاب . والسنة . إذ عمدة الدعاة للدين عندنا : الإسناد . والسند : هو التلقى عن من له سند متصل برسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن لا سند له لا يعبأ به وهؤلاء لا سند لهم لا إلى القرآن العزيز . ولا إلى السنة المطهرة . بل لا يحسنون قراءة الفاتحة بالحروف الموضوعة بالوضع الإلهى لها الذى هو من جملة ما حفظ الله به قرآنه . بل يقرأونه كقراءة العامة من غير مراعاة للفرق بين حروف القرآن وغيرها من ألفاظ العامة . وأيضاً لا سند لهم فى السنة ولو إلى الأربعين النووية .

فلست أدرى كيف يلقبون أنفسهم بأنصار السنة والدعوة بها ؟ والسنة تبرأ منهم ومن أشكالهم . فحال هؤلاء كحال من يعرف القراءة والكتابة لا غير ، فيقرأ فى الكتاب ويحاضر بالمكتوب ، وهو لا يعرف أسرار الكتاب ولا المكتوب .

ولا يخفى عليك حال من يعرف منهم أساليب الإنشاء كالكتبة العامة ، فتراه إذا افتتح أن يكتب موضوعاً أو يقول مقالا تعجب لألفاظه ولحن قوله فهم من مصداق قوله تعالى :

(فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول) (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم) وخاصة من نال منهم شهادة من الأزهر الشريف ، والله يعلم بحال تلك الشهادة . والطامة الكبرى والبلوى العظمى منهم على البسطاء والضعفاء من المسلمين ، إذا كان هذا

الطاغية له مركز بارز أو وظيفة ظاهرة من قبل الأزهر فى الدين ، فإنه يكون قائداً فى الضلالة عظيما . ولا يدرون أن هذا يجر بهم إلى السوء لمخالفتهم لإجماع المسلمين ، لأن عقيدتهم الضالة المضلة يقتفون فيها أثر أسلافهم الضالين المضلين ممن شيدوهم بألقاب عظيمة توهم الضعفاء فى العلم والدين والإيمان بأنهم أئمة فضلاء بقولهم : تقى الدين شيخ الإسلام الإمام . . اللهم إلا أن يكون كما قلت فيهم :

إمام فى الضـــلال له رجال يعينون الإمام على الضـلال

وقال ابن يسار :

همو ظلموه حين سموه سيداً كما ظلم الناس الغراب بأعورا

وأيضاً بأن مبادئهم الفاسدة ، وعقائدهم الزائفة كانت أكثر جمعاً فى ظاهر القرآن من غيرها من عقائد الضالين . وشبه المارقين ممن ينسبون أنفسهم إلى الإسلام والمسلمين . بل يعتقدون أنهم على الحق المبين والله يشهد ، إنهم لكاذبون لمفارقتهم للسواد الأعظم من عقلاء المسلمين وهم العلماء العاملون .

ولا تنسى أيضاً أن سبب انتشار دعوتهم الآن فى كثير من الأنحاء لسبب تولية أحد ضعفاء الأيمان برياسة دينية ممن استبدلوا فيها بالدين الدرهم والدينار . ذلك الذى فيه الاستعداد لتلك المبادىء الخاطئة فاقتدى به كثير من ضعفاء الايمان الذين كان يقربهم من مجلسه ، ويرفع من شأنهم حتى اشرأبت أعناقهم للدعوة إلى مبادئه . فقطع الله رأسهم غيرة على دينه ، وعلى المقربين من عباده الصلحاء .

ولكن بعد أن زرع بذور الفساد فى أرض صالحة لها فنبتت وترعرعت فى قلوب أولئك الذين لا خلاق لهم فى الدنيا والآخرة لحكم يعلمها الحكيم العليم .

وبتوفيقه تعالى : جمعت ما يبطل أدلتهم ويقطع حجتهم فى هـذا الـكتاب الذى سميته « فيض الوهاب فى بيان أهل الحق ومن ضل عن الصواب » حتى لا تقوم لهم قائمة بعدها إن شاء الله تعالى من الأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية . الـكتاب . السنة . الإجماع . القياس . الاستنباط للرد عليهم فى جميع ضلالاتهم من كتبهم التى كتبوها بأيديهم ، وضللوا بها بسطاء الإيمان من المسلمين . وهى الآن مطبوعة مع بيان زمن طبعها ، ولم أجىء بشىء من أقوال الرادين عليهم المعاصرين لهم مع الثقة بهم ، وعنيت بالرد عليهم قمعاً لأول مؤسس للضلالة حتى إذا ما انقض ، انهار جميع ما بنى عليه ، ومن اشتهرت به مذاهبهم الآن . وكذا كل من كان على تلك المبادىء الخاطئة . (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الـكافرون) .

اعتـــذار

إليك اعتذارى سيدى القارىء فى تعبيرى كثيراً بلفظ الضـالين والمـارقين والمفارقين وغير ذلك من الألفاظ التى ظاهرها القدح والذم ولا أقصد ذلك .

إنمـا غرضى لفت نظر عباد الله تعالى لمـا أوجبه تعالى عليهم حيث بين لهم أنه تعالى هو الحق وأنه واحد ، ودينه الذى شرعه لجميع عباده من آدم إلى آخر الدنيا واحد ، ورسله الذين أرسلهم إليهم بمقتضى ما اشتملت عليه دعوتهم واحد ، وبين تعالى لعباده ، أن هذا هو الحق ، ومن اتبعه كان على الحق ، وما عداه هو الضلال . (فماذا بعد الحق إلا الضلال) .

وبين سبحانه وتعالى فرق عباده ووصفهم بمـا يميز به بعضهم عن بعض من المؤمنين والـكافرين والمنافقين .

فقد امتثلت فيه أمره تعالى . وأمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديث المروى عند مسلم : (أترعون أن تذكروا الفاجر بما فيه أذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) .

وقد حث أفاضل علماء الأمة الاسلامية المجاهدين ضد المارقين المكابرين في الحق بقولهم :

من الدين كشف الستر عن كل كاذب
وعن كل بدعى أتى بالعجائب
ولولا رجال مؤمنـــون لهدمت
صـــوامع دين الله من كل جانب

وما غرضى إلا الإدلاء بالأدلة العقلية التى بعضها لم يسبقنى فيه أحد ، وبيان سر وجه ، وحكمة إجماع المسلمين . على الأمر الذى لم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم وأجمع العلماء عليه أنه من الدين ، ليستريح المؤمن إلى عمله ويدفع به كيد المارقين ، وهو شأن أهل الحق فى كل عصر إذ ما من واحد منهم إلا وقد قيضه الله تعالى للقيام فى وجوههم . كاشفا عن حالهم واصفا لهم بأنهم ضالون (راجع كتب ومجاميع تقى الدين السبكى فقد كشف عن حالهم) .

وابن السبكى وابن حجر ومن على شاكلتهم فى كل عصر . وها هو الشيخ سليمان بن عبد الوهاب شقيق محمد بن عبد الوهاب . قد ألف كتاباً سماه « بالصواعق الالهية فى الرد على الوهابية » وهو مطبوع الآن بمصر ، رد فيه على أخيه محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابية فى مواجهته فى عصره .

ولا أذهب بك بعيداً ، فها هو سيدى أحمد الدرديرى الذى أطبق علماء الأمة الإسلامية أنه مالك الصغير . قال فى كتابيه الشرح الكبير

والشرح الصغير فى أول كتاب الطلاق فيهما : « والطلاق بالثلاث يقع ثلاثا خلافا لابن تيمية فانه ضال مضل خرق الإجماع وسلك مسالك الابتداع » .

وقد قام فضيلة العالم الكبير الشيخ محمد عليش فريد عصره بسعيه بنفسه فى هذا الميدان وكذا الشيخ يوسف الشرنبخوى من أفاضل علماء الأزهر ، وهاهو فضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعى المشهور مفتى الديار المصرية سابقاً والشيخ محمد حسن مخلوف وكيل مشيخة الأزهر سابقافى رسالتيهما المطبوعتين مع الصواعق الالهية سالفة الذكر . وفضيلة الشيخ يوسف الدجوى من جماعة هيئة كبار العلماء بالأزهر قام بدوره برسالته المسماة : « صواعق من نار » .

وهكذا سنة الله تعالى فى خلقه كلما ظهر منهم شيطان قيض الله له شهابا ثاقبا مابقيت الدنيا ، (ولن تجد لسنة الله تحويلا) ولو شئت أن أذكر لك من ميدان الضالين والرادين عليهم فى كل عصر لضاق بنا المقام . ولاتنس أن لكل نمروذ ابراهيم ، ولكل فرعون موسى ، ولكل ضال محمدى .

وإليك ماطلعت عليه فى طبقات الحنابلة : أن ابن كثير العماد حصل بينه وبين ابن قيم الجوزية مناظرة . فقال ابن قيم الجوزية لابن كثير : أنت تكرهنى لأنى أشعرى ؟

فقال ابن كثير : لوكنت شعرا من ساسك إلى راسك . ماصدق أحد من المسلمين أنك أشعرى ، بعد أن كنت تلميذا لابن تيمية ؟

وأرجو اعفائى من المؤاخذة بكثرة الكلام والتكرار فيه ، لأنى اقتديت برب العالمين فى كتابه العزيز ، الذى بعضه يوضح بعضا وبحضرته صلى الله عليه وسلم الذى كان يقول الحديث ثلاثا ليؤخذ عنه ، ويحفظ

منه ، وان اختلفت ألفاظه كالقرآن ، ولكن المعنى متحد . وبالبخاري الذي مكرره كثير ، واشتهر قولهم عنه :

قالوا لمسلم فضل   قلت البخاري أعلى
قالوا المكرر فيه   قلت المكرر أحلى

فكثرة كلامي إن شاء الله تعالى لاتخلو عن كبير فائدة ، كيف لا وقد أجمع أفاضل علماء الأمة الإسلامية ، على أن مقاصد المؤلفين تنحصر في سبعة أشياء :

(١) ابداع شيء لم يسبق اليه . (٢) وشرح مغلق . (٣) وتصحيح مخطأ . (٤) وترتيب منثور . (٥) وجمع مفرق . (٦) وتقصير مطول (٧) وتتميم ناقص .

فبحمد الله تعالى كتابنا هذا يشتمل على هذه المقاصد كما يشهد به المطلع المنصف السالم من شائبة الحسد مع العفو عن زلة أو هفوة كما قال الأفاضل ، لكل عالم هفوة ، كما لكل جواد كبوة ، ولقد أحسن من قال :

ان الكريم اذا رأى عيبا ستر   أما اللئيم اذا رأى أفشى الخبر
ليس اللئيم يضر إلا نفسه   والله يغفر للكريم كما غفر

ولكن ماقل سقطه وحسن نمطه ، كان أرجى في القبول خاصة عند ذوي العقول .

نسأل الله تعالى أن ينفع به كل محب للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطيبين الطاهرين المباركين ، وأن يجعلنا من الموفقين الممتثلين لقوله صلى الله تعالى عليه وسلم (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله ، وأحبوا آل بيتي لحبي) اللهم أدم علينا ذلك ، وأمتنا على ذلك . وأحينا على على ذلك فانك ولي ذلك آمين .

وأعود فأقول أن أكبر حامل لى على تأليف هذا الكتاب إنما هو إثبات الأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية . التى لا يجد المفارق للجماعة عنهـــا محيصا . فتحمله على الرجوع إلى الحق إن شاء الله هدايته . وتوفيقه . وإلا . فقد قال تعالى : (فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

ومن أهم أغراضى أيضاً . لفت نظر المخالف للإجماع إلى بيان أصل الحكم فى المستحدثات التى لم تكن فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم ولا الصحابة ولا التابعين . وأن أصله فى كتاب رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين . وما أجمع خيار الأمة الإسلامية على جواز العمل به إلا لذلك الأصل والبيان . غير أن الله تعالى لم يوجد من يجرى على أيديهم هذه المستحدثات إلا فى الأزمنة الآتية فتحدث وقتئذ قال تعالى (ويخلق مالا تعلمون) ليكون القرآن أصلا لكل محدث فى كل زمان — يرجع إليه فيه . إذ أن منزله هو الخالق المحدثين والمحدثات فيكون من مصداق قوله تعالى (تبياناً لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

ولعلى أن أدرج مع من دخلوا تحت مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه (لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم) رواه الشيخان .

لأن الرجال على ما قرره أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فيما يروى عنه (الرجال أربع: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى . وهذا عالم فاسألوه . ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى وهذا ناس فذكروه . ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى . وهذا جاهل فعلموه . ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى وهذا فاسق خطر فاحذروه) .

فالرابع هذا هو الذى جهل أنه جاهل ، وهذا هو وجه خطورته على العالم وهذا هو الذى قال فيه العقلاء : جاهل جهلا مركبا ، إذ الجهل ينقسم إلى قسمين : جهل بسيط وهو الذى يتعلم صاحبه بالتعلم .

وجهل مركب وهو الذى صاحبه لا يقبل المعلم لأنه جهل أنه جاهل كما قيل :

قال حمار الحكيم يوما لو أنصف الدهر كنت أركب
لأنى جاهل بسيط وصاحبى جاهل مركب

وقد أبان الحق عز وجل فى كتابه العزيز لعباده على لسان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) إن من عباده من يفهم بالإشارة ومنهم من يفهم بالعبارة ومنهم من لا يفهم لا بالإشارة ولا بالعبارة ، بل بالقامه حجرا وصدق الله العظيم حيث قال : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) .

فعرفت أن الناس على ثلاثة أقسام ، كما بين الحق عز وجل فى هذه الآية الكريمة وكما حدث من أسند الله تعالى إليه البيان والتبين صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المروى عن البخارى ومسلم عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا ورعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فكذلك مثل من فقه فى دين الله عز وجل ونفعه بما بعثنى الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » .

وصدق الله العظيم حيث قال : (فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وقال عز شأنه (وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) .

لفت نظـــــر

لا يخفى على كل ذى عقل راجح أن الله تعالى لمقتضى كماله ، جعل الحق والضلال مستمرين فى الدنيا إلى يوم القيامة . ولـكل منهما دعاة فى كل عصر وجيل . وفى المثل الجميل : « لـكل نمروذ ابراهيم ، ولـكل فرعون موسى ، ولـكل ضال محمدى » .

قال تعالى : (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) وقال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً) .

ولذا تراه تبارك وتعالى قيض لأسلاف هؤلاء الضالين رجالا من قبل من خيرة من أفاد . وتصدى لنشر العلم ودفع الضلالات عن العباد . وليس ذلك فى مقدور كل أحد ، بل ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من أعلام العلماء القائمين بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . واختصهم الله تعالى بالوراثة المحمدية قولا وفعلا ، ونور بصائرهم بما أتاهم الله من البراهين والعرفان ، حتى صاروا خلفاء الأنبياء وواسطة عقد الأصفياء فهم أقرب الناس إلى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم . المؤيدون بالمعرفة والتحقيق . والمقومون بالمتابعة والتصديق ، عرفوهم أنهم قد خرجوا على الدين وخرقوا الإجماع فى كثير من أحكام الكتاب والسنة والإجماع ، وضلوا عن فهم كثير من الآيات التى تقوم فى وجه عقيدتهم . كقوله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) وقد قال الله تعالى : (كنتم

خير أمة أخرجت للناس) وقال تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وقد أجمع عقلاء الأمة على أن الأمة هى الجماعة المستفيضة الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب . وهذا مستفاد من قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم : « سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على الضلالة فأعطانيها» رواه الامام أحمد فى مسنده والطبرانى فى الكبير عن أبى نضرة الغفارى رضى الله عنه . وفى مسند الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما : « لا تجتمع هذه الأمة على ضلالة ويد الله مع الجماعة » .

وفى البخارى : « من فارق الجماعة قيد شبر » وفى رواية : « قيد شعرة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه وقوله صلى الله عليه وسلم . « ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » والمراد بالمسلمين والأمة فى أقواله صلى الله تعالى عليه وسلم هم الجماعة المستفيضة الذين يستحيل تواطؤهم على الكذب ، فهم المعصومون من الخطأ والضلال ، لا الشرذمة القليلة وهم الفرق الضالة فى الإسلام الذين هم من مصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: « وستفترق أمتى » الحديث وسيأتى .

فهؤلاء الأفاضل يرون أن الجهاد فى الدين واجب على العلماء ، بمحاربة المخالفين للكتاب والسنة . كما هو واجب على الأمراء بمحاربة الكافرين . وكما هو واجب على كل فرد فى نفسه لنفسه قال تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وأن الله لمع المحسنين) وقال صلى الله عليه وسلم : « والجهاد ماض لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل منذ بعثنى الله إلى أن يقاتل آخر هذه الأمة الدجال » رواه البخارى فبقيامهم لأمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم يرون المارقين من الدين ، ويعرفونهم فى لحن القول ، فيكدرون صفوهم ، ويقطعون ألسنتهم ، ويدحضون حجتهم ، ويبينون أن الله تعالى حجب عنهم نور البصيرة

واليقين ، فيمدون لهم مااستطاعوا من أدلة عقيلة ونقلية ، وفيهم يجاهدون فيقطعون أوصالهم بالأدلة القاطعة ، ويمزقونهم بالبراهين الساطعة حتى تراهم كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة .

ولذا تراهم لاقيمة لهم على الدوام ضعفاء لايقوون ، وهاهم أولاء كما ترون أنهم مع كثرتهم فى العدد لاوزن لهم بجانب أهل الحق . (قل لايستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) .

وقد مضى على بدء طريقتهم لأول منشىء لها نحو سبعمائة سنة تقريبا ، ومع هذا الزمن الطويل لم يزدهم الله إلا خذلانا ومقتا ، فهم من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم : « افترقت المجوس إلى سبعين فرقة . وافترقت اليهود إلى إحدى واسبعين فرقة ، وافترقت النصارى إلى ثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى » رواه البخارى . كل هذا لسبق شقوتهم لم يهتدوا إليه

وطبعا هم لايضلون إلا ضعفاء الإيمان أو الأطفال ، أو العوام ممن لايستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا ، ويزينون لهم القول بأنهم على الحق ، وأنهم سيكثرون ، وأن الإسلام بدأ بالقلة وبالفقراء حتى كثروا ، ويحرفون لهم الكلم عن مواضعه بالأباطيل بما يموهون به على عقولهم القاصرة ليفسدوا عليهم عقائدهم السليمة . وهى إنما كانت مجرد تقليد ؛ وليس عندهم من البرهان مايمكنهم أن يصدعوا به ، بل طمس الله بصائرهم عن إدراك الحقائق . قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)

مهمـــة

لايخفى على ذوى البصائر النيرة ، والعقول الراجحة ، أن كثرة الدعاة لهم الآن ، ومصدر انتشار مطبوعاتهم فى هذا العصر هو مساعدة دول الاستعمار التى يرجع منشأ عداوتها ، إلى زمن الصحابة وسيد المرسلين ، فهم من ذلك الحين لايزالون يحلمون : أنهم يبيدون الإسلام والمسلمين بأى طريقة يفكرون فيها تفكير الشياطين ، وكم فكروا ؟ وسعوا وجاهدوا واجتهدوا بكافة الوسائل فلم يفلحوا : « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » « إن كيد الشيطان كان ضعيفا » فبحوله وقوته تعالى لم يستطيعوا لأن منزله حافظه ، ووعده سبحانه حق ، وقوله تعالى صدق :

ولم يبعد عليك العهد ، أنهم طالما أتوا بأعلم علماء وافصح فصحاء قسيسيهم ورهبانهم للتبشير فى البلاد الاسلامية للمستعمرة لهم وكان هنا بمصر تحاجهم صغار الطلبة من الأزهر ، فأعجزوهم وأفحموهم .

ولما لم يفلحوا عمدوا إلى فقراء وضعفاء الإيمان من الطلبة بالأزهر وصاوروا يستميلونهم بالأموال ، ويحملونهم على عمل جمعيات تضمهم وتجمعهم ، ويساعدونهم بكافة الطرق اللازمة لهم ، حتى فى نجاحهم فى الامتحانات ، بطريقة خفية إلى أبعد حد ، ليكونوا دعاة لهم فى التضليل فى المراكز التى ينالونها بعد التخريج ، ويوجهون كل واحد منهم فى ناحية من نواحى الدين ، للطعن فى عقائد المسلمين ، والتشكيك فيها ، والتفريق بينهم ، وكان من أكبر همهم القضاء على حفظة القرآن الكريم ، وها هو ذا من أوصلوه إلى رياسة التربية والتعليم فى ذاك الوقت ، حتى اقترح أمورا ، منها : القضاة على مدارس تحفيظ القرآن الكريم ، الذى هو مصدر أوامر الله تعالى ونواهيه لعباده أجمعين . ومنها : توحيد التعليم

فى جميع المراحل الثقافية والدينية وغيرها توطنة لمحو مصدر العلوم والمعارف الدينية فى جميع أنحاء الكرة الأرضية « الأزهر » . الذى ماجعله الله عز وجل الا ليكون مصدرا لفهم كلام رب العالمين ، وسنة سيد المرسلين . اللذين شاء الله تعالى بقاءهما مابقيت الدنيا بأهلها الطيبين وكل من أراد هذا التراث الخالد بسوء قصمه الله ، كما هو مشاهد وجرت به العادة قال تعالى : (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) وقال تعالى : (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

ولما كان حال هؤلاء المضللين المأجورين فى حاجة إلى مايستندون إليه ، ويعتمدون عليه ، فى تلك الدعاوى التى أسندت إليهم بالمخالفة ، عمدوا إلى كتب أسلافهم ، الضالين ليكون لهم شبه العذر فى قيامهم بهذه المهمة العظيمة - التى لم يقم بها ، ويصدع بأمرها ، ويجهر بدعوتها ، الاكل خوان أثيم ، ومن يشاء منهم أن ينغمس فى حطام الدنيا كمن سبقه فارتقى من خدمة مراحيض المسجد إلى عمارات وسيارات ، وغيرهم ممن كان من المهملين بين العلماء فارتفع إلى مركز لم يكن يحلم به ، لأنه كان فى زوايا الأهمال فارتقى وظهر بتلك الدعوة الضالة .

فالذى يطمح منهم إلى تلك المظاهر الدنيوية يدرج على مبادىء المخالفين وينسج على منوال المارقين ، وليس لهم فى تلك المخالفة إلا مابيناه لك ، وخاصية استعداد تكوينهم وقابليتهم للشر الصرف ، لمراجعتهم وقراءتهم كتب المخالفين ضد إجماع المسلمين من ذلك الحين القديم .

ولما عهدوا إليهم ذلك وقبلوه ، وقاموا به ، وأعلنوا الدعوة إليه ، ساعدوهم على طبع تلك الكتب لتكون لهم حجة فى أيديهم ، وعظموا مؤلفيها ، بالألقاب الفخمة الضخمة ، ليكون لهم الحق فى الأخذ منها ،

والاستدلال بها ، فأغنوا أعداء الدين عن القسوس والرهبان المبشرين وهذه الدعوة ضد الإسلام والمسلمين ، ولامبالاة لهم بمخالفتهم لإجماع المسلمين ، وياليتهم وقف بهم الأمر لهذا الحد ، بل يطعنون فيمن أسسوا هذا الدين الحنيف الخالد ، الذى ينسبون أنفسهم إليه ، ويأخذون الألقاب العظيمة به وهو الاجماع .

ولم يدر الواحد منهم أن الإجماع هو السبب الوحيد فى نسبته لأبويه حتى — قال لى أحدهم : من أين لنا أن هذا الولى الذى يزار ، مات على الايمان ؟ حتى نعتقد أنه ولى ؟ فقلت له : ومن أين لنا أنك ابن أبيك ؟ فبهت الذى كفر . ثم أقمت له البرهان العقلى والنقلى من الكتاب والسنة على أن الاجماع حجة فى الدين كما سنبينه فى الرد .

ومن طمس بصيرتهم التى لم يهتدوا بها إلى فهم كلام رب العالمين ولا سنة سيد المرسلين — وقد فهمها واهتدى إليها العلماء العاملون فأقروها وأجمعوا على جواز العمل بها — انهم ينكرون وصول ثواب القرآن إلى الميت وأنه لاينفعه ـ وكيف هذا مع قوله تعالى (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) وقد ثبت بصريح صحيح السنة أنه شفى المريض . والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم صلى على الميت وقرأ الفاتحة فى حديثى البخارى ومسلم . فهل قراءة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم للفاتحة على الميت كانت عبثاً ؟ وقد جعلها الأمام الشافعى رضى الله تعالى عنه ركنا فى صلاة الجنازة ـ وسنوضحه فى الرد عليهم .

وبلغ بهم من الشر والعمل على هدم إجماع المسلمين أنهم ينكرون كل مااستحدث فى الدين ، وجاء أصله فى كلام رب العالمين ، وبيان سنة سيد المرسين ، من الأمور التى لم يشأ الله تعالى إظهارها إلا فى الأزمنة التى أراد تعالى إظهارها فيها على يد عباد لم يخلقوا إلا فى هذه الأزمنة

قال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) الآيات فالصحابة رضوان الله تعالى عليهم كانوا يستنبطون من القرآن والحديث وكذلك يكون هؤلاء الآخرون من بعدهم وفى الحديث الشريف « فرب مبلغ أوعى من سامع » الحديث .

فكل عمل ظهر بعده صلى الله تعالى عليه وسلم هو مطوى . فى الكتاب والسنة — وإن لم يكن معمولا به فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم . كالصلاة والسلام بعد الأذان . وقراءة سورة الكهف يوم الجمعة . والمنارة . وتجويف المحراب . وكل شيء يعارضون فيه وإلا لزم عليه قلب الأوضاع الإلهية (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وأيضاً لوجب الإيمان بالرسول حين نزوله من بطن أمه لأنه نزل كامل التكوين . وهو عند الله رسول . ولكنه لم يجيء الزمن الذى يتكلم فيه ولا الزمن الذى يصلح فيه لملاقاة الوحى . ولا الزمن الذى يصلح فيه للتبليغ ، فهكذا الأحكام التى نزلت كاملة وبينها الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . فتكون من سنة أقواله الشريفة التى هى إحدى السنن الثلاث التى عليها مدار أحكام الدين الإسلامى ولم تخرج تلك الأحكام عن أقواله . وأفعاله . وتقريراته . صلى الله تعالى عليه وسلم . وسنوضحه .

ومما أطبق عليه عمى قلوبهم . أنهم يحرمون التوسل بالصالحين ، أو لم يروا أن الله أباح التوسل . حتى بالبهائم ؟ كما فى باب الاستسقاء .

فكيف لا يجوز التوسل بعباد الله الصالحين ؟ والأموات أحيا من أحياء الدنيا .

روى البخارى عن عبد الله بن أبى أوفى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس ثم قام

فى الناس فقال : أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . ثم قال اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم — قال شارحه المراد التوسل إليه بنعمة الدين والدنيا والآخرة . فماذا يقول منكروا التوسل ؟ والحديث يؤخذ منه أوسع من ذلك فى التوسل وسنبينه إن شاء الله تعالى .

والنبى صلى الله تعالى عليه وسلم توسل إلى الله تعالى بنعمه التى منها الماء والسحاب والكتاب والتراب كما فى صريح السنة . وبمن سبق حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من الأموات من إخوانه الأنبياء فى حديث السيدة فاطمة بنت أسد أم سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنهم وناهيك بقوله العام (واسألوا لى الوسيلة) الذى ليس الغرض منه انتفاعه صلى الله تعالى عليه وسلم بدعائهم إنما هو عود النفع عليهم بإظهار حبهم لحضرته وودهم له صلى الله تعالى وسلم ليستحقوا بها الشفاعة الخاصة بذلك لامتثال أمره صلى الله تعالى عليه وسلم وسنوضحه فى محله إن شاء الله تعالى بأجلى تبيان .

الباب الأول
وفيه فصول

الفصل الأول

فى حصر شبه المخطئين ومن على مبادئهم الخاطئة

أقول : إن سبب جمع هذه الأدلة العقلية والنقلية من الكتاب والسنة . ومنها : الإجماع والقياس والاستنباط . هو ما كان يرد على فى أثناء قراءتى الدروس فى الأزهر الشريف ،وكثرة السائلين من المعاندين ومن على مبادئهم . وكنت أراهم كالشياطين . تارة ظاهرين . وأخرى مختفين . فكنت أعرفهم بنور الإيمان . فيسألون عما جاء فى القرآن المجيد من صفات الأفعال التى للحق عز وجل مما تشبه صفات الحوادث .

١ — كقوله تعالى : (والسماء بنيناها بأيد) (أأمنتم من فى السماء) . (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا) . (الرحمن على العرش استوى) . (إليه يصعد الكلم الطيب) وفى الحديث : « ينزل ربنا إلى سماء الدنيا » . وفى الحديث « يضع الحق قدمه فى النار فتقول قط » وفى حديث الجارية التى أشارت إلى السماء ، وفى الحديث : « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » وغير ذلك من الآيات والأحاديث التى هى شبه الضالين ومن على شاكلتهم . هذا بالنسبة للحق عز وجل ، وأما بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم .

٢ — فيقول السائل : ما معنى ما اشتهر على ألسنة الناس فى قولهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أول خلق الله ونعلم أن أول من خلق من البشر آدم عليه السلام .

٣ — أو لم يكن بشراً ، وأنه عليه الصلاة والسلام ابن عبد الله وآخر الأنبياء والمرسلين ؟

٤ — وما معنى الإستغاثة برسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هو كإخوانه الأنبياء والمرسلين أدى ما عليه من الرسالة وانتهت رسالته ؟

٥ — وما حكم زيارته صلى الله عليه وسلم هل تنفع الزائر ؟

٦ — وما حكم التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد موته ؟

٧ — وما معنى يا نور عرش الله ؟

٨ — وما حكم الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم عقب الأذان ؟ والصلاة عليه بغير الإبراهيمية .

٩ — وما معنى السائل بحق نبيك عندك . وهل على الله حق لعباده ؟

١٠ — أو ليس الحلف بغير الله ، كالحلف برسول الله صلى الله عليه وسلم وبالأولياء ، وبالآباء والأبناء شركا ؟

١١ — وهل رسول الله صلى الله عليه وسلم حى ؟

١٢ — وهل يسمع ويجيب أم مات وانتهى ؟ (إنك ميت وإنهم ميتون) .

١٣ — وهل رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى يقظة ؟ وما معنى ذلك وقد انتهى الجسم وانقطعت عنه الحياة ؟ هذه شبههم بالنسبة للحق عز وجل ولرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

وأما بالنسبة لشبه مستحدثات الكون فكثيرة جداً منها قول السائل منهم :

١٤ — لا نعمل إلا بالقرآن والثابت بالسنه الصحيح .

١٥ — لا حاجة للإجماع . ولا القياس ولا الاستنباط والدين الصحيح الخالص ماكان يعمل صلى الله تعالى عليه وسلم لا غير .

١٦ — لا يعول لا على قول أبي حنيفة ولا مالك ولا الشافعي ولا ابن حنبل هم رجال ونحن رجال !!! لأن الدين واحد ، وهم فرقوه واختلفوا فيه!!

١٧ — وما حكم الطلاق بالثلاث فى لفظ واحد ؟

١٨ — وما حكم الصلاة بالنعال وصلاة حاسر الرأس ؟ وما حكم إمامتهما وإمامة من تظهر ملابسه تفاصيل عورته ؟

١٩ — وما حكم الصلاة فى المساجد التى فيها القبور ؟

٢٠ — وما حكم دفن الأموات فى المساجد ؟ وهل يجوز ذلك شرعا أم يحرم ؟

٢١ — وما حكم زيادة المنبر على ثلاث درجات ؟ وما معنى البوارق التى ترفع عليه ؟

٢٢ — وما حكم قراءة سورة الـكهف يوم الجمعة فى المساجد ؟ وما حكم تجويف المحراب فى المساجد ؟ أليس ذلك بدعة ؟

٢٣ — وهل القرآن ينفع الميت ؟ وهل يصل إليه ثوابه ؟ وهل ينفعه عمل الغير الأجنبي ؟

٢٤ — وما معنى قراءة الفاتحة للأموات أو لقضاء الحاجات ؟

٢٥ — وهل ما يسميه الناس من أصحاب الأضرحة بالأولياء ينفعون ويضرون ؟ وإذا كانوا كذلك ؟ فأين فعل الله تعالى ؟ وهو يقول : (فعال لما يريد) . (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . (أدعونى أستجب لـكم) والحديث : « إذا سألت فاسأل الله » وإذا كانوا ليسوا كذلك فما معنى زيارتهم ؟

٢٦ — وما معنى تقبيل الأضرحة والطواف حولها ؟ وتقبيلك الأعتاب ؟ وما معنى الشكاية لهم ؟ وما معنى الطلب منهم ؟ أو ليس النداء بأسمائهم على سبيل الإستغاثة شركا ؟

٢٧ — ما حكم الذبائح التى تذبح لأصحاب الأضرحة ؟ وما حكم الموالد التى تعمل لهم ؟ وللنبى ؟ ولآل البيت ؟ وما يعمل فيها من الزينات وغيرها ؟ أليس بدعة ؟

٢٨ — ما حكم النذر الذى تعمله العامة لأصحاب الأضرحة ؟ أليس هو لغير الله ؟

٢٩ — ما وجه تفضيل بعض الناس لما يسمونه بالولى ؟ مع أنى لو عملت لكنت أفضل منه ؟ وأيضاً لا ندرى هل مات على الإيمان أم على الكفر ؟ .

٣٠ — هل الأموات يحسون ويعرفون من يزورونهم ؟

٣١ — ما حكم دلائل الخيرات والأوراد فى الشرع ؟

٣٢ — ما حكم العتاقة ؟ وهل تنفع من تعمل له ؟

٣٣ — وما حكم التمائم والتعاويذ التى تعمل من القرآن ، أو ليس القرآن إلا قانوناً للتعامل به مع الله والناس ؟

٣٤ — وما حكم الصلاة الخفيفة ؟ والعذبة ؟ والتزام حالة واحدة من السنن التى بينها صلى الله عليه وسلم ؟

٣٥ — وما حكم زر الطربوش الذى من الحرير ؟

٣٦ — وما حكم لبس الحرير والقطنية والآلاج والسكروتة وما على شاكلتها من أنواع الحرير ؟

٣٧ — وما حكم هنيئاً ، وحرماً ، ومن ماء زمزم ، وتقبل الله وشفيتم وغير ذلك ؟ وحكم صلاة العيدين والتكبير. والصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم مع التكبير ؟

٣٨ — وما حكم المصافحة عقب الصلاة ؟

٣٩ — وما حكم تقبيل اليد لغير الوالدين ؟

٤٠ — وآخر يقول : هاهو القرآن آمامنا ، ولا تعمل إلا بما فيه لاغير؟

٤١ — وآخر يطعن فى السنة ؟ وفى رواتها ؟

٤٢ — وآخر يطعن فى عدالة الصحابة ، وينسبهم إلى سوء الحفظ ، وأن ماجاء عنهم فى رواية السنة ، كان تسعة أعشاره بالمعنى ؟ قاتلهم الله تعالى . الله يشهد لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدالة قبل أن يخلقوا فى التوراة والإنجيل وهم يطعنون فيهم ؟ عاملهم الله تعالى بما يستحقون ؟

٤٣ — وآخر يقول : لافائدة للاجماع بعد القرآن ؟

٤٤ — وآخر يقول . لايجب العمل إلا بما كان فى زمن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم ، فلا نصلى عليه عقب التكبير فى العيدين .

٤٥ — وآخر يقول : بنفى القياس ، الذى أوجبه الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى أولى الأمر سواء .

٤٦ — وآخر يقول : يحرم تقليد المجتهدين من الأئمة المجمع على تقليدهم ويكفر من يقلدهم ! !

٤٧ — وآخر جاء بكتاب « كشف الشبهات لابن عبد الوهاب » الذى جمع فيه جميع الآيات التى فى القرآن بشأن الكافرين والمشركين وأصنامهم وجعلها شاملة لزائرى قبر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم والأنبياء والصالحين ويقول : أليس هذا هو الحق ؟

٤٨ — وآخر يجىء بالعقيدة الواسطية لابن تيمية وببعض الوسائل التى كانت قدوة لأتباعه المعجبين برأيه وهم يعتنقونها بلا تدبر . ويقول : أنه لايجب العمل إلا بما فى هذا .

٤٩ – وآخر يقول : يحرم النظر فى كتب التوحيد ، وها هو القرآن فيه كل شىء .

٥٠ – وآخر يقول: أن أبوى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى النار . يقول ذلك الزعيم لهم فى مصر الآن ! !

٥١ – وآخر يقول : هل النبى صلى الله عليه وسلم عبد الأصنام ؟ إذ يقول ذلك : الداعية لهم فى مصر الآن ! !

٥٢ – وآخر يقول : هل الإسراء والمعراج كان للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم بالجسم والروح معا ؟ أو بالروح فقط ؟ كما أفتى به شيخ من شيوخ الأزهر فى الفتوى التى أرسلت للقاديانية فى الهند . وهل سيدنا عيسى عليه السلام مات وانتهى كما أفتاهم به الشيخ فى الفتوى السابقة . ولنا على هذه الفتوى رد يكتب بماء الذهب تحت الطبع .

٥٣ – وآخر يقول : مامعنى القضاء القدر والدعاء بردهما فى ليلة النصف من شعبان ؟

٥٤ – وآخر يقول : مافائدة زيارة القبور ؟ واذا كان هناك فائدة ؟ هل تعود على الحى أم على الميت ؟

٥٥ – وآخر يقول : مامعنى المحمل الذى يعمل فى مصر ؟ وماحكم الحالة التى تعمل وما دليلها شرعا ؟

٥٦ – وآخر يقول : أليس مايسمونه كرامة الولى من أبطال نظام الكون ؟ وإذا قيل بها فلا تسلم بأنها تكون من الأموات ؟ هذه شبه المخالفين للمارقين من الدين بالنسبة لمستحدثات الكون . وأما بالنسبة لما بعد الموت فشبههم فيه لاتكاد تختلف عن شبه منكرى البعث فيقولون مايقرب من قول من قالوا : (أأذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد) (أأذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) إذ زعموا أن الموت

فناء تام لا شعور ولا إحساس معه بعد خروج الروح من هذا الجسم ، وإن تشاء فقل : عقيدتهم فى الأموات كعقيدة الكفار كما قال تعالى عنهم : (ياأيها الذين آمنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور) .

٥٧ — ويقولون هل الأموات يشعرون ؟ ومن طمس بصيرتهم قد تمسكوا بالآيات التى لم يفقهوا لها معنى كقوله تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) . (إنك ميت وإنهم ميتون) . (وما يستوى الأحياء ولا الأموات) وغير ذلك مما يلهمهم إبليس فهمه ، ويقسم لهم أن هذا هو الحق فى هذه المسألة وما عداه باطل ، وكل علماء المسلمين مخطئون وهو ومن معه على الحق ، وقد ضل عن ما ورد عن الله عز وجل والرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك .

٥٨ — يقول هل الأرض لا تأكل أجسام ناس مخصوصين ؟ ولو دفنوا فى المسبخة ؟

٥٩ — وكيف يكون حياً من أكلته الأرض ، ومن أكلته السباع والأسماك وغير ذلك ممن تفرقت أجسامهم ؟

٦٠ — وآخر يقول وهل العذاب والنعيم فى هذه الحالة على الروح فقط ؟ أو على الروح والجسم معاً ؟

٦١ — وهل الأموات يعلمون بحال الأحياء ؟ وهل يعلمون بمن يموت بعدهم ؟ ممن كانوا يعرفونهم فى الدنيا ؟ وهل يتزاورون ؟ وهل يتأذى الميت بما يعلمه عن الحى ؟

٦٢ — وآخر يقول : ما معنى قوله تعالى : (وما أنت بمسمع من فى القبور) . (إنك لا تسمع الموتى) هذه أكبر دلالة على أن الموتى لا يحسون ! !

٦٣ — وآخر يقول : لا نأخذ بالحديث بل القرآن فقط وفيه كل شيء ! !

٦٤ — وآخر يقول : ما حكم الذكر الذى يعمله المتصوفة الآن . والطبل والصفير . والرقص . وما حكم ذلك فى الشرع الشريف ؟ وختم الصلاة وتلاوة الأوراد المعروفة بين مشايخ الصوفية ؟

٦٥ — وما حكم الذكر بالقصر فى الشرع ؟ والذكر بالتمايل ؟

٦٦ — وما حكم الذكر بالاسم المنفرد ؟

٦٧ — وهل يجوز فى الشرع عمل ما لم تعمله الصحابة ؟ من هذه المستحدثات فى الدين ؟

٦٨ — وما حكم الذكر أمام الجنائز ، هل هو حرام أو بدعة ؟

٦٩ — وآخر يقول : فى الصوفية كالجنيد ، ومحي الدين وأبى الحسن الشاذلى والغزالى والحلاج وابن القارض وأبى يزيد البسطامى ، وغيرهم ؟ هل كانوا على إسلام وهدى ؟ أو هم رءوس أهل الشرك والإثم فى تلك الأزمان ؟

٧٠ — وآخر يقول : الصوفية طائفة مجوسية دخلت على الإسلام والمسلمين ، وليس لها أصل فى الدين .

٧١ — وآخر يقول : الوارد فى السمعيات وهى ما تتعلق بعلامات الساعة وأحوال الآخرة من وقت خروج الروح إلى دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار — ما هى إلا قصص وأخبار إسرائيليات لم ترو إلا عن وهب بن منبه وكعب الأحبار وغيرهم ممن أعتنقوا الإسلام أخيراً كما أفتاهم به الشيخ فى فتوى الهند السابق ذكرها .

٧٢ — وآخر يقول : يحرم تقديم العقل على النقل . ولا يجوز الرجوع إلى العقل . فى الأمور الدينية . هذا وهم غير ذلك مما سنبينه

فى إثبات الردود عليهم فى كل مسألة من مفترياتهم الفاسدة ، ومحق أباطيلهم الكاسدة ، بحول الله تعالى وقوته ، فإنه المستعان ولست أدرى هل أهل هذه الفرق الزائفة الضالة ممن يعارضون الحق عز وجل فى آياته بكافة أنواعها من القرآنية والكونية فيكونون ممن قال تعالى فيهم : (ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد) .

أو هم قوم ممن خلق الله تعالى من القسم الثالث وهو أحط للموجودات الذين قال الله فيهم : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

أو هم فقدوا إنسانيتهم فتكالبوا على حطام الدنيا بأية وسيلة مع عدم مبالاتهم بغضب الله تعالى عليهم .

أو هم أمعات لكل من يرون أن فى اتباعهم أدنى مصلحة لهم ، ولقد صدق من قال :

إنا نرى نفراً عنـد الملوك سموا
وما لهم همـة تعـلوا ولا ورع
وأنت ذو همـة فى المجـد عالية
وقد ظمئت وهم فى الجاه قد كرعوا
فقلت باعوا نفوساً واشتروا ثمنـا
ولم أبعها ولم أخضع كما خضعوا
قد يكرم القرد إعجاباً بخسته
وقد يهان لفرط النخوة السبع

الفصل الثانى

أول من أنشأ الفساد بين العباد ومن اتبعه

من أهل الضلال والعناد

إعلم أن أول من أنشأ الفساد ، وابتكر الشقاق والضلال بين العباد وأسس الزيغ عن الحقيقة ، وعدم الموافقة ، والخروج عن الجادة إلى العناد ، هو أول عاص الله تعالى فى خلقه أجمع ، وهو إبليس لعنه الله تعالى . ومصدر ذلك :

(١) استبداده بالرأى فى مقابلة النص . (٢) واتباعه الهوى فى معارضة الأمر . (٣) واستكباره بالمادة التى خلق منها وهى النار على المادة التى خلق منها آدم عليه السلام وهى الطين ، وقد تشعب من هذه الشبهة شبهات وسارت فى الخليقة ، وسرت فى أذهان الناس حتى صارت مذاهب بدعة وضلال — وهذه ترجع فى الأصل إلى حالة واحدة وهى : الحسد فى مقابلة النعمة — فاعتراضه على خالقه لجهله بمقام رب العالمين . فقال : (أأسجد لمن خلقت طيناً) وقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) ثم قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) .

ولهذا كان الناس عنده على نوعين :

الأول — نوع يئس من التسلط عليه ، وانقطع أمله فى إغوائه ، وهم من ليس له عليهم سلطان وهم العباد المخلصون كما هو صريح اعتراف إبليس على نفسه فيما حكاه الله تعالى بقوله : لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) .

وقد أكد الله تعالى الاستثناء الذى قرره إبليس راغماً فقال تعالى : (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) .

والثانى — نوع آخر مكنه الله تعالى منه ، فسماه حزب الشيطان وجنده وأتباعه وهم الغاوون المعنيون بقوله تعالى (إلا من اتبعك من الغاوين) وهذا النوع الثانى ، منه الكافر الصريح ، ومنه المنافق الذى قال : آمنت بلسانه ولم يؤمن بقلبه وجنانه ، وهو أخطر من الكافر الصريح ، وأدخل فى سلك الجندية الإبليسية والرعوية له . ومن هذا الصنف الثانى : الخوارج على ماورد وصفهم فى الأحاديث الآتية ، ومن هذا النوع أيضا ، عصاة المؤمنين إلا أن سلطان إبليس عليهم غير تام لانخراطهم فى حزب الله بالسبب الأقوى وهو الأيمان ، ولاقبال الله عليهم كلما استغفروا وأنابوا كما قال تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم) .

فقد بان لك أن الخوارج غير عصاة المؤمنين حالا ومآلا ، أما حالا : فلان عصاة المؤمنين أجوافهم عامرة بالإيمان لم يصبها سهام إبليس ، وأن لعب بجوارحهم الظاهرة أحيانا ، فردهم : أما إلى توبة نصوح ، وأما إلى عفو من الغفور الرحيم ، ولا كذلك الخوارج فقد انتزع إبليس من صدورهم الإيمان وحشاها مكان الإيمان غلا وحقدا واستهزاء بالمؤمنين ومردهم إلى عذاب النار وسخط الجبار وبئس القرار .

وما تقول فى قوم ليس لهم عداء ولا خصومة ولا اعتراض إلا على أهل الله تعالى وخاصته من خلقه يسمونهم أصناما ويسمون محبيهم عباد أصنام ويلقبون أنفسهم بأنصار السنة ، فالى أى فريق يعزى هؤلاء ؟ وفى أى سلك ينخرطون ؟ لاشبهة فى أنهم من الخواج المارقين ، كما لاشبهة فى أن الحوارج من المردة المنافقين ، وصدق الله تعالى حيث يقول : (ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم) فقد استبان لك أن عناصر الشر فى الدنيا ثلاثة : — الكفار ، المنافقون ، الخوارج .

وهم جند إبليس الذين لهم خصومة مع الأنبياء المكرمين ، ومن على أقدامهم إلى وقتنا هذا ، وإن شاء الله تعالى سنذكر الحكمة فى كونها ثلاثة ولكنها ترجع إلى وحدة عند ذكرنا السر فى تكوين الموجودات ، وهذه الشبه اعترض بها اللعين على خالقه جل شأنه نتيجة محاورة دارت بينه وبين الملائكة لعدم سجوده مع الملائكة فقال :

(١) لم خلقنى ؟ (٢) ولم كلفنى بمعرفته وطاعته ؟ (٣) ولم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ ولما لم أسجد له ؟ (٤) فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ؟ (٥) ولم سهل لى الدخول على آدم الجنة ثانيا فوسوست له وغررته وأخرجته معى منها ؟ (٦) ولم سلطنى على أولاده حتى أراهم من حيث لايرونني ؟ (٧) ولم أمهلنى لما استمهلته ؟ ولو أهلكنى لاستراح العالم منى وعاشوا على الفطرة طاهرين سامعين مطيعين على الخير بدون امتزاجه بالشر ؟

فهذه السبع الشبه التى قالها اللعين الجاهل بمقام رب العالمين ولم يدر الجهول أن من مقتضيات كمال الذات أن تكون جامعة بين الضدين اذ لو خلقت على الخير فقط لاتصف الوجود بالنقص للشق الآخر إذ لابد للخير من شر يقابله والكون كله مبنى على أصلين . المقابلة والمماثلة . كما هو معلوم إذ بالمقابلة يأتى العناد والتنافر وبالمماثلة يأتى التآلف والتوافق إن الله على كل شىء قدير .

هذا ومن المعلوم الذى لامراء فيه أن أول ظهور الخير هو آدم عليه السلام فبدأ اللعين بالمقابلة بالشر بما ظهر فيه وبه ومنه ومن هنا صح قولنا أن كل شبهة وقعت لبنى آدم فإنما هى من اضلال الشيطان ووساوسه نشأت من شبهاته ولما كانت أسباب الضلالة محصورة فى السبع رجعت كبار البدع والضلالات إلى سبع ولا يجوز أن تعدو شبهات فرق الزيغ

والكفر هذه الشبهات وإن اختلفت صورها وتباينت أحوال الطرق فيها فإنها بالنسبة إلى أنواع الضلالات كالبذور وترجع جملتها إلى استنكار الأمر مع ظهور الحق — وإلى الجنوح للهوى فى مقابلة النص — وها كم من جادل نوحاً وهوداً وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين — فكلهم نسجوا على منوال اللعين الأول فى إظهار شبهاته — وحاصلها يرجع إلى دفع التكليف عن أنفسهم وجحدوا أصحاب الشرائع والتكاليف بأسرهم إذ لافرق بين قولهم (أبشر يهدوننا) وبين قوله (أأسجد لمن خلقت طيناً) وعن هذا صار مفصل الخلاف ومحز الإفتراق كما هو فى قوله تعالى (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا) — فبين أن المانع من الإيمان هو هذا المعنى كما قال فى الأول - (ما منعك ألا تسجد إذا أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) — وقال للتأخر من أتباعه كما قال المتقدم : (أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين) وكذلك لو تعقبنا أحوال المتقدمين منهم وجدناها مطابقة لأقوال المتأخرين — (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) - (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) - فاللعين الأول لما أن حكم العقل على ما لا يحتكم عليه العقل لزمه تحكم الخلق فى أمر الخالق جل شأنه ولقد صدق بعض المحققين فى قوله إن الله تعالى خلق إبليس ليكون رسولا للشر ضد جميع الأنبياء والمرسلين ومن على منوالهم ليحصل بذلك تمام نظام العالم بأن يكون للهدى رسول يدعو إلى الخير وللضلال رسول يدعو إلى الشر وهذا معلوم بالضرورة فى أصول الشرائع وبذلك يكون الجهاد وفضل المجاهدين قال تعالى : (ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان

إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى) — (لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءاً موفوراً) . ومن أمعن النظر وتأمل بعين الفكر عرف أن أول مظهر للخير قابله أول مظهر للشر فكان ذلك مصداق قوله تعالى : (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) — وقد قلنا إن المقابلة والمماثلة هما أساس التكوين — وهذا فى الممكن بالفعل وأما فى القول فقد سبق قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقوبل بالقول (أتجعل فيها من يفسد فيها) وذلك استفهام عن الحكمة فسبحان المبدع — (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) .

تبصرة وتبيان

لما تقدم لك الكلام على إبليس وعلى شيء من معنى بعض حكمة الحكيم العليم فى إيجاده تعالى للموجودات — عن لنا أن نذكر لك شيئاً من معنى أهل الخطاب والتكليف — وهم أربع — الملك والجن والشيطان والإنسان عساك أن تهتدى إلى الصراط المستقيم وتقف على شيء من عظيم قدرته عز وجل ويكون ذلك سلاحاً قوياً لك فى دفع شبه الزائغين المنحرفين عن الصراط المستقيم الذى أناره رب العالمين بكتابه المبين الجامع بين نوعى الهدى والضلالة قال تعالى (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) . وإن تعجب فعجب قولهم فى خير خلق الله صلى الله تعالى عليه وسلم أنه بشر مثلك مثله ، والإطراء فيه زيادة عن الحد شرك ؟ فكيف يتفق هذا مع قول الله تعالى فى حضرته صلى الله تعالى عليه

وسلم (وإنك لعلى خلق عظيم) والخلق هو الجامع لأمهات الكمال والفضائل وقد سماه تعالى نورا وكتاباً مبيناً فى قوله جلت قدرته (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله) . الآية قال العلامة الألوسى فى تفسيره : النور والكتاب هو حضرته صلى الله عليه وسلم بدليل عود الضمير عليهما مفرداً . وسيأتى حرفياً عند بيان حقيقته صلى الله عليه وسلم وقد سماه تعالى : الحق فى قوله تعالى : (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) وقد وفينا المقام فى الكلام على الحقيقة المحمدية على ما سيأتى . وقال تعالى لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم (تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) وفى صحيح الترمذى عنه الله تعالى فيما يرويه عن جابر بن سمرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ليلة أضحيان وعليه حلة حمراء فجعلت أنظر إلى وجهه وأنظر إلى القمر فوالله الذى لا إله إلا هو لهو عندى أبهى من القمر . فانظر إلى من كشف الله تعالى بنور الإيمان عن قلبه فعرف رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وإلى من كان يراه كشخص عادى ، وها كم حديث إسلام ثمامة المروى عند البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد فجاءت برجل من بنى حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سوارى المسجد فخرج إليه النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير يا محمد إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت فتركه حتى كان الغد ، ثم قال له ما عندك يا ثمامة ؟ قال ما قلت لك إن تنعم تنعم على شاكر فتركه حتى كان بعد الغد ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ قال عندى ما قلت لك ، فقال

أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله يا محمد والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض البلاد إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة فماذا ترى فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل صبوت قال لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم .

فأنت ترى هؤلاء الملاحدة المارقين من الدين الذين أعمى الله تعالى بصائرهم ينظرون إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم نظرة ثمامة إليه وهو كافر عدو لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم — ولو كانوا مسلمين لنظروا إليه عليه الصلاة والسلام نظرة ثمامة وهو مسلم وسيأتى ما هو أوضح إن شاء الله تعالى .

واعلم أن الفاعل المختار اقتضت حكمته العالية التنويع فى الموجودات فأوجد عالم الأنوار — وهم من عالم الأمر — لا من ذكر وأنثى بل بقول كن — كالملائكة — وعالما آخر من مارج النار وهى الحرارة الشديدة الناشئة عن النار ليس فيها لهب ولا دخان وجعل فيهم التناسل من ذكر وأنثى وهم الجان — وعالما آخر من عالم الجن وهم الشياطين من الذكورة والأنوثة أيضاً وعالما آخر وهو عالم المادة الآدمية وجعله مركباً جامعا لجميع العوالم السالفة الذكر فجعل فيه ما فيهم وزيادة المادة وجعلهم من ذكر وأنثى فكانوا أفضل المكلفين ولما كانوا أفضل المكلفين

كانوا أفضل المخلوقين أجمعين . وبه يستدل على أن الحقيقة الإنسانية أفضل الحقائق الإمكانية . وإن الله تعالى جعل منها أفضل الرسل ولله تعالى عوالم لاتحصى . وآثار الصفات من الموجودات لاتستقصى - (وما يعلم جنود ربك إلا هو) - والكلام فى ذلك لاتسعه الأوراق لجل الصانع رب العالمين - ولما كان هذا الخلق على أنواع بمقتضى آثار الصفات وفى الأصل على حالتين بمقتضى كمال الذات كان المآل إلى نزلين « الجنة والنار » هذا ولما كانت حكمته العالية تقتضى ربط الأمور بأسبابها جعل التكليف محلا للاستحقاق لتظهر حكمة العدل والأنصاف - والتكليف لم يكن إلا لهؤلاء الأربع وكل بحسب ماخلق له إذ الحكم التدوينى محاذ للحكم التكوينى .

ولما كان الإنسان أكرمهم على الله تعالى لما سبق بيانه من أن تكوينه جمع كل حقائق المكونات - كان فيه إجمال الموجودات . ومن الإجمال يكون التفصيل - قال تعالى (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) - وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه :

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ففى الإنسان الحيوان والنبات والجماد - وفيه الهواء والتراب والنار والماء . وقال بعض المحققين أنه مشتمل على العالمين - العلوى والسفلى كما لايخفى على كل ذى ذوق سليم ومن له أدنى إطلاع على كتب المحققين . فالعوالم كلها خلقت له قال تعالى (خلق لكم مافى الأرض جميعا) وقال تعالى (وسخر لكم مافى السموات والأرض جميعا منه) وهذا أصح دليل يرد به على من قال أن الملائكة أفضل من بنى آدم - ولقد أطال الكلام . . وأطال معه فى الرد عليه أفاضل الأمة بأدلة عقلية ونقلية على ماسنوضحة إن شاء الله تعالى بأجلى بيان وهو ولى التوفيق .

ومن وحى الشيطان إليهم اعتراضهم على زيارة الأنبياء والأولياء إنه من أمعن النظر بعين الحقيقة ، وجد أن كل مخالف للسواد الأعظم من أهل الحق فى كل أمة من الأمم الماضية عامة وفى هذه الأمة خاصة ، هو على مبدأ إبليس المخالف الأول لجميع أهل الحق وهم الملائكة الذين أذعنوا لأمر الله تعالى بالسجود لآدم وقد شذ هو وخالف كل أولئك وانصرف عن المعنى المراد الواضح وهو مافى تكوين آدم من بديع صنعه تعالى وتقليبه إياه من قالب إلى قالب — من تراب إلى طين إلى حمأ مسنون إلى صلصال كالفخار إلى بشر سوى . فكان أمر السجود منه تعالى لا لذات آدم ، بل لصانع هذا الصنع البديع — ولما منحه من عالى أسراره الإلهية قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فقد غفل اللعين وانصرف عن ذلك إلى ظاهر الحال وغالط بأن المأمور بالسجود له هى صورة آدم فقال : لاينبغى السجود إلا للخالق ؟ وآدم مخلوق ! ! فلا ينبغى السجود له بل إزداد فى الدلالة بالتمويه والتضليل بالبرهنة على أنه محق صادق الدعوى مؤيداً فكرته ونظريته بأنه لو كان السجود يصح لمخلوق لكان هو أولى من آدم إذ أن تكوينه أقوى وأعلى من ذلك العنصر الذى تكون منه آدم بقوله : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

ومن هنا قال كل من على هذا المبدأ فى زيارة الأنبياء والأولياء : هذا مخلوق مثلنا ومن يعمل يكن مثله أو خيراً منه ؟ ويغفل عن أسرار الله تعالى فى المزور كما غفل إبليس عن أسرار الله تعالى فى آدم . وهذا ومن طمس بصائرهم .

قال سيدى على وفا فى إبليس ومن على مبادئه :

لو أبصر الشيطان طلعة نوره
في وجه آدم كان أول من سجد

أو لو رأى النمرود نور جماله
عبد الجليل مع الخليل وما جحد
لكن جمال الله جـل فلا يرى
إلا بتخصيص من الله الصمد

وأراد أيضاً معارضة الحق فى حكمته فى توجيهه عباده إلى الأسباب الدالة على خالقها والأخذ فى تلك الأسباب التى لا وصول إلى غاية إلا بها وتكون هى من أكبر الدلالات على معرفته جل وعلا ، إذ لولاها لحاروا فى معرفته تبارك وتعالى . فبها . ومنها . يتعرفون .

فكانت الأسباب هى أكبر دال على الله تعالى بالظهور والإيجاد وما خلقها إلا لذلك ، لأن المنصف ذا العقل الرشيد ينظر فى السبب فيجده مخلوقا مثله فيستدل به على الخالق ، إذ الصنعة تدل على الصانع. والعباد باعتبار تكوينهم لا يعرفون إلا المشاهد المعاين القريب منهم وأن الله تعالى جعل الأسباب لتوصل إلى المسببات وهى غاية كل طلب ، ولذلك أمرهم بالتوجه إليه والقصد منه قال تعالى : « واسألوا الله من فضله » أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم على ما قرره العلامة البيضاوى فى تفسيره — ولولا ذلك لكان للناس أن يتساءلوا : وأين الله ؟ كما قالوا من قبل : (أرنا الله جهرة) وذلك لما جبلوا عليه من معرفة المعاين المشاهد فيريدون أن يروا الله تعالى كذلك ؟ والله تبارك وتعالى دلهم على معرفته بالغيب قال تعالى (الذين يؤمنون بالغيب) ويعرف جل وعلا بنور الإيمان وقوة اليقين من غير رؤيته جل وعلا بالأبصار .

على أن من المخلوقات ما لا يرى ولا يعرف إلا بأثره كالهواء مثلا ومنها ما لا يرى إلا لبعض مخلوقاته من أهل التحقيق الموثوق بهم كالملائكة والجن ولهذا وصف الله تعالى عباده المتقين بقوله : (الذين

يؤمنون بالغيب) أى يثقون ويؤمنون به إيماناً جازماً مطابقاً للواقع عن دليل كالإيمان بوجود الملائكة ، والجن والهواء والزبد فى اللبن والدهن فى الحب ، فهذه أشياء حقيقية ثابتة ، والعلم بها متحقق ، فعدم رؤية هذه الأشياء ليس دليلا على عدم وجودها ، بل هى موجودة قطعاً مع عدم رؤيتها ، والإيمان بوجود موجدها واجب وإن لم نره جل وعلا .

على أن موجد هذه الأشياء دلنا على وجوده بها ، والإيمان بذلك واجب ، ومن لم يؤمن بذلك فهو كافر وهالك . والإيمان بكل ما ذكرنا من الموجودات كذلك ، وإن لم نرها ، فأوجب الله تعالى علينا الإيمان به .

واعلم أن الله تعالى قد فضل بعض أنواع المخلوقات على بعض ، من إنسان ، وحيوان ، ونبات ، وجماد بمميزات يمتاز بها بعضها عن بعض ، وذلك أمر مشاهد لا سبيل إلى إنكاره ، وهذا التفضيل أمر ذاتى بمقتضى تكوينه الذى فطره الله تعالى عليه قال تعالى : (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه) فأنت ترى دهن اللبن غير دهن الحيوان ، غير دهن النبات ، غير دهن الأرض ، وفى كل فرد منهم ميزة تغاير ما فى الآخر ، والملائكة كذلك فى كل فرد منهم ميزة تغاير الآخر ، والجن كذلك والإنس كذلك ، والحيوان والطيور والدواب والهوام والحشرات والهواء والمياه وبقاع الأرض من الجماد وكل ذلك مخلوق ميسر لبنى آدم ، وقد أمره تعالى أن يقصد كل شىء من بابه قال تعالى : (وأتوا البيوت من أبوابها) فمن أراد شيئاً فليأت ذلك المخلوق ، فيجد حاجته عنده وفيه ، ولا ينبغى أن يعتقد أن هذا المخلوق هو الذى أدى له حاجته وإنما هو سبب والإنسان مجبول بفطرته على الأخذ بالأسباب كما أمره سبحانه وتعالى إذ الآيات الكريمة والسنة المطهرة ناطقة بذلك ألا تنظر إلى قوله تعالى : (وادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض)

فأرشدهم تبارك وتعالى إلى الجهات التي تختص بطلبهم، وإن كان ما هم فيه خيراً مما طلبوه فقال تعالى : (أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير) ولكن يلفت نظر عباده جل شأنه إلى اختصاصه بعض الموجودات دون بعض، ويلفت نظرهم أيضا إلى الأسباب وأنه تعالى كون موجوداته عليها، ولا يتأتى حصولهم على طلبهم وأغراضهم إلا منها وبها فقال لهم تبارك وتعالى لما سألوا عن بيان وتعين القاتل (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وناهيك بقوله تعالى : (اضرب بعصاك البحر) وبقوله تعالى : (اضرب بعصاك الحجر) وفى قوله تعالى : (وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً) والحديث الشريف الصحيح الذى يرويه البخارى وجميع أصحاب السنن والمسانيد عما آذى به بنو إسرائيل سيدنا موسى عليه السلام. وكان يغتسل منفرداً عن الناس فقالوا : موسى آدر أى فى خصيتيه كبر فهذا هو الحامل له على الانفراد ؟ فخلع ثوبه وعصاه ووضعهما على حجر يوماً ونزل البحر واغتسل وخرج فطار الحجر بالثوب والعصا يعدو وهو يجرى وراءه ويقول : ثوبى يا حجر ثوبى يا حجر) وينادى الحجر وهو يجرى وراءه حتى مر على الملأ الجلوس من بنى إسرائيل ورأوه على هذا الحال فقالوا : ما بموسى من ضر، ثم أدرك الحجر ومال عليه ضرباً بالعصا . أليس هذا كله من تشريع الحق جل وعلا لعباده وخاصة لذهابه إلى مكان النور من الشجرة .

ولا يخفى عليك ذهابه وطلب التعلم من الخضر ؟ لم يطلب ممن بيده ملكوت كل شيء أن يجيئه بالحجر أو أن يعلمه كما علم من لقى التعب فى لقيه وأيضاً لم خص تبارك وتعالى جبل عرفات بقبول الحج ؟ ولم خص البيت الحرام بالبركة ؟ (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً) . ولم خص جهة السماء برفع الأكف لها عند الدعاء ؟ الله يخص

الحجارة والبقاع والماء والهواء والنبات المخلوقة لبنى آدم بالبركة ويوجههم إليها وينفعهم بها من بركاته تعالى ويجردهم هم منها بعد قوله تعالى : (وجعلنى نبياً وجعلنى مباركا) وفى الحديث الصحيح الذى يرويه البخارى وغيره من أئمة الحديث العام الشامل من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن من الشجرة شجرة ما بركتها كبركة المسلم » .

ففى بقاع الأرض قال تعالى : فى البقعة المباركة من الشجرة) وفى قوله تعالى : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) وفى قوله تعالى (ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها) وفى قوله تعالى : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا) وآية البيت المحرم التى تقدمت وفى الحديث الذى يرويه البخارى وغيره .

« أتانى آت من ربى صل بالعقيق فإنه واد مبارك » وفى النبات : قوله تعالى : (من شجرة مباركة زيتونة) وفى الماء : قوله تعالى : (وأنزلنا من السماء ماء مباركاً) وفى الهواء : قوله تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح) .

فهكذا أسرار الحق عز وجل فى مخلوقاته ، لأنها آثار صفاته ، ولابد أن يكون للصفات فى كل مخلوق أثر يدل على المؤثر جل شأنه ليكون من أكبر الدلالات على مبدعه .

فيجب على الإنسان الذى خلق الله تعالى له كل شىء وسخر له مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه جل شأنه أن تكون نظرته إلى تلك الأشيـــاء نظرة بصير متدبر فى أسرار الله تعالى فى هذه المخلوقات وما اشتملت عليه من بديع الآيات البينات الدالة على مبدعها جل وعلا قال تعالى : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله

من شيء) وقال تعالى : (قال انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

وعلى هذا فـــلا يكون إتجاه الإنسان إلى تلك المخلوقات لذاتها ، بل يـكون اتجاهه إليها إتجاهاً إلى الذى أبدعها سبحانه وتعالى كما قال بعض العارفين : مارأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه . وقال الصديق رضى الله تعالى عنه مارأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله . وقال بعض العارفين أيضاً

إذا مارأيت فى الله الـكل فاعلا رأيت جميع الـكائنات ملاحا
وإن أنت لم تشهد محاسن صنعه جهلت فصيرت الملاح قبحا

وقصير النظر ينظر إلى المخلوق لذاته ويعطيه صفة الاستقلال بما يفعل ، وهذه ليست من عقائد المسلمين .

وهذا هو منشأ الخلاف بين أهل الحق وأهل الضلال الذين يجهلون ذلك ويقول قائلهم : كيف أترك الخالق وانصرف إلى المخلوق ؟ فهذا جاهل بحقيقة الأمر يجب تعليمه وتوجيهه لعله يهتدى إلى الصواب .

على أن من الضالين من يعرف ذلك على حقيقته ويصرفه مـكابرة إلى مايوافق هواه ، فهو على مبدأ إبليس اللعين الذى صرف أمره سبحانه وتعالى بالسجود لآدم إلى غير المراد منه . وهذه معارضة فى الحق ظاهرة البطلان وصاحبها عدو مضل مبين .

وأما أهل الحق فمنهم من يعرف ذلك عن علم ويقين بفطرته ، ومنهم من يعرف ذلك بأنه وضع إلهى فى المخلوق يؤمن به ويتبع فيه أهل الحق من علماء المسلمين ، ويعتقد أن المخلوق ماهو إلا عبد مقرب من ربه ، وأن الأمر كله لله وحده كما حدث فى مقام سيدى أحمد البدوى وذلك أن الشيخ محمد عبده حينما كان وكيلا لمشيخة الأزهر ذهب إلى معهد طنطا لأداء عمله به ، فوجد امرأة أمية تخرج من جيبها نقوداً وتضعها فى صندوق النذر لسيدى أحمد البدوى وهى تقول :

« يا سيدى خلى بالك من الراجل والعيال والزراعة والبهائم وأنت عليك الصبر واحنا علينا الوفا » .

فنظر الشيخ محمد عبده إلى الشيخ إبراهيم الظواهرى شيخ معهد طنطا حينئذ وقال له : ما هذا يا شيخ ؟ أوثنية فى معهد العلم ؟ فنادى الشيخ إبراهيم الظواهرى المرأة وقال لها : ماذا قلت للسيد ؟ فأعادت عبارتها فقال لها الشيخ إبراهيم :

وهل السيد ربنا حتى تقولى له ذلك ؟ فقالت: لا ياسيدى هو طاهر مقرب يطلب لى من الله » .

فلم يسع الإمام إلا السكوت والانصراف .

وهذه قد سمعتها بأذنى من لسان المرحوم الشيخ خميس بلال الذى كان مدرساً بمعهد طنطا وقتئذ .

فاتجاه الزائر للولى ، إنما هو لظهور نعمة الله تعالى عليه وإبرازها فيه ، فالزائر مهما بلغ من الجهل لا يعتقد أن للولى فعلا مستقلا به دون الله تعالى فمرجع الأمر كله لله وحده ، كما يتجه المريض إلى الطبيب الذى منحه الله تعالى نعمة الطب كوسيلة للشفاء والله تعالى هو الشافى .

فهل نحرم على المريض أن يذهب إلى الطبيب وينتظر الشفاء بلا سبب ؟ فالزائر يزور الولى رجاء أن يكون قد قدر الله تعالى له خيراً على يديه وعنده وعلى كل حال ففى الزيارة صلة لله تعالى ومودة لآل بيت نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم وقد قررنا أن لا ولى لله تعالى من الذين يخرق الله تعالى على أيديهم العادات إلا من آل البيت . فتوجه الزائر إلى الأولياء ما هو إلا للنعمة التى أبرزها الله تعالى فيهم دون غيرهم وهى توالى الكرامات وإلا فالأولياء بغض النظر عن تلك النعمة هم كأفراد الناس كما تعلمون أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أيضاً لم

يعرفوا إلا بتوالى المعجزات وإلا فهم كغيرهم من أفراد الناس ، ولم يقصدوا إلا لنعم الله تعالى فيهم وعليهم ، فالمقصود فى كل حال هو الله سبحانه وتعالى المنفرد بالإبداع والإيجاد وحده لا شريك له فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وأما ما ورد فى كتاب كشف الشبهات لابن عبد الوهاب الذى جمع فيه جميع الآى التى نزلت فى الكتاب العزيز بالرد على عبدة الملائكة والجن والكواكب والأصنام وغيرها من الحيوانات والنار وجعلها فى زوار الأنبياء والأولياء ليشرك بها البرءاء من المسلمين للموحدين الذين يشاهدون آيات الله تعالى فى موجوداته للدلالة على أنه الواحد للعبود ، فى ما تحرك وسكن وتغير وثبت فهو من الضلالة بمكان ، وهو مردود من ثلاث جهات الأولى ، أن هذه الآيات الكريمة ناطقة بأن من نزلت فيهم عبدوا غير الله تبارك وتعالى ، والفرق شاسع بين عبادة غير الله وبين زيارة أحباء الله لما فيهم من أسرار الله عز وجل — والثانية أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد أخبرنا بعصمة أمته صلى الله تعالى عليه وسلم من الشرك ، فى الحديث المروى عند البخارى وغيره وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » الحديث — والثالثة لأن هذا الكتاب فيه كل المخالفة لإجماع المسلمين وقد رد كل ما جاء فيه أفاضل عصره وخاصة رسالته فى التوحيد فإنها على نهج سابقيه فى المخالفة حذوك النعل بالنعل وسنبينه فى الرد عليهم إن شاء الله تعالى .

أفهل من يفرد المعبود جل شأنه فى جميع أنواع المعاملات للمشاهدة له سبحانه ، كمن يعتقد أن للموجودات عملا بغير عمل الله سبحانه ؟ أفلا تعقلون !!

وهم يقولون : هذا يجوز أن يكون فى الأحياء لأنهم قد ينفعون بدعوة صالحة ، أو بتوسط فى قضاء حاجة ، وأما الأموات فقد انقطعت صلتنا بهم وانتهوا إلى ما عملوا وقد شغلوا به إن خيراً وإن شراً .

ونحن نقول لهم : إن الحياة الآخرة التى أولها مايسمى بالموت الدنيوى ، هى أقوى وأوسع من الحياة الدنيا . قال تعالى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) فهى الحياة الحقيقية . والحياة الدنيا بجانبها لا تذكر قال تعالى (وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) ولذلك يقول الانسان بعد موته (يا ليتنى قدمت لحياتى) إذ عرف أن الحياة الآخرة هى الحياة حقاً وفيها يعلم الانسان أحوال الناس فى الدنيا وما لديه فى الآخرة فى آن واحد . وهم قطعاً يسمعون منا ما نقول ويجيبوننا . غير أن الكثير من الناس لا يسمعهم ، وذلك عام فى جميع بنى آدم مسلمهم وكافرهم ، وناهيك . بحديث . القليب قليب بدر الذى خاطب فيه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الموتى من كفار قريش بقوله : (هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟) فقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه يا رسول الله أتناجى موتى ؟ ! فقال : « ما أنتم بأسمع منهم » .

فكيف يقولون مع هذا ومع صريح القرآن الكريم ؟ ! إن المراد بحياة الآخرة . هى ما بعد القيام من القبور وفى الحديث الشريف الذى كشف لنا أن الحياة بعد الموت أحيا وأوسع من حياة الدنيا وهو قوله صلى الله تعالى عليه وسلم :

« الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فالفرق بين الحياتين كالفرق بين النوم واليقظة قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) .

وكان يكفيهم تعليم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الأمة كيف تزور الأموات ؟ وتقول لهم . السلام عليكم دار قوم مؤمنين فهل يأمرنا صلى الله تعالى عليه وسلم أن نخاطب من لايسمعنا على أن اعترافهم بأن الحى ينفع دون الميت هو الشرك بعينه ، لأنهم يعترفون بنسبة النفع إلى الحى وأما نحن فلا نعترف لمخلوق حياً كان أو ميتاً بالاستقلال بنفع أو ضر فالله تعالى وحده هو الضار النافع .

منجاة الزائر للولى

وهم يقولون أن الزائر يناجى الولى ، وهذه المناجاة لغير الله أفلا تكون هذه شركا « ويدعون من دون الله من لايستجيب لهم » .

ونحن نقول : إن الإدعاء بأن المناجاة لاتكون إلا لله ، هو إدعاء باطل . لأن المناجاة من الألفاظ الموضوعة وضعاً عاماً ، وهى فى كل شىء بحسبه ، وهى من الأوضاع الإلهية التى شرعها تعالى لعباده أما له تبارك وتعالى حيث قال : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم) الآية . وأما لرسوله صلى الله تعالى عليه وسلم حيث قال عز وجل . (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول) الآية . وأما لعباده حيث قال سبحانه وتعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان وتناجوا بالبر والتقوى) الآية . وقال تعالى (وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر) أى فالنصر واجب عليكم وفى قوله تعالى (لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) وغير ذلك كثير . وفى الحديث « إذا كان أحدكم فى فلاة وخشى الهلاك فنادى ياعباد الله أغيثونى فإن الله يأتيه بعبد من عباده يرشده » قال ابن قيم الجوزية . إما ملك أو جن أو من بنى آدم .

وإن قال من طمست بصيرته : هذه خاصة بالأحياء ؟ قلنا له : من فى الآخرة أقوى وأوسع حياة وكان يكفيهم ردعاً وزجراً لهم حديث القليب قليب بدر السابق قريباً ، أو حديث : تعليم الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم الأمة كيف يقولون للأموات إذا زاروهم أو مروا عليهم ثم أو لم يكفهم أحدهم فى أن اليوم الواحد كم مرة يناجى فيها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى تشهده فى الصلاة بقوله : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » فهل هم تركوا ذلك فى تشهدهم بعد موته صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ ! ! اللهم أرنا الحق حقاً وأرزقنا أتباعه وارنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

وأعلم أن المناجاة موجبة على المناجى أن يجيب من ناجاه وينصره بصريح الآى المتقدمة وبيان السنة فى ذلك متى إستطاع اليه سبيلا ، وقد قررنا أنه تعالى هو المرجع فى كل شىء حسبما أمر به سبحانه وتعالى ، وبينه رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المنعم على عباده فيمنح من يشاء مايشاء من فضله الذى لايحد ، ألا ترى الحديث القدسى الذى يرويه أصحاب السنن والمسانيد وقال فيه ابن تيمية فى رسالة الفرقان : هو أصح حديث فى السنة وهو : « لايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه وبصره ويده ورجله فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه » الحديث . وله روايات . وهذا العطاء والتفضل من الكريم جل شأنه لايحرمه عبده فى حياته الآخرة التى التى هى أقوى من حياته الأولى فيستجيب الله تعالى لهذا العبد لنفسه أو لغيره حياً كان أو ميتا ، قال تعالى : (لهم مايشاءون عند ربهم) الآية . وفق مافى علمه تعالى .

وقد سأل عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه النبى صلى الله تعالى

عليه وسلم عن الدعاء عند ذكره القضاء والقدر فقال : « ذاك من القضاء والقدر » وعلى هذا فطلب الزائر من المزور هو طلب من الله تعالى وهو الحق الثابت فى عقيدة المسلمين بأنه ما توجه إلا إلى مصدر من مصادر الحق جل وعلا وباب من أبواب رحمته تعالى ، ولم يخرج بذلك عن دائرة القضاء والقدر ، بل قد يكون الولى فى حياته الأخرى ممنوحاً من ربه تعالى الإطلاع على ما يريده الزائر من ربه على يد ذلك الولى وكل ذلك كما قلنا مرجعه إلى ما عند الله تبارك وتعالى .

ولا ينسى ذو عقل أن الحركة والسكون بيده تعالى ، لأنه عز وجل بعد بيان التشريع هو الموجه المحرك المسكن ، وهذه هى العقيدة السليمة لأنه إن لم يكن الأمر كذلك لاستطاع كل شخص أن يرجع شاباً أو يحتفظ بقوته وحياته ما استطاع ؟ وهذا باطل بالعقل والنقل . فالعقيدة السليمة الصحيحة كل مخلوق مسير لا مخير وفى الحديث الصحيح المروى عند البخارى وغيره : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .

ومن هنا تعرف معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المشهور عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » الحديث . يروى بطوله : ولكن محط شبهتهم هاتان الجملتان منه فيستدلون به على منع سؤال عباده تعالى وهم لا يعقلون له معنى ، لأنه لو كان المعنى كما يفهمون لانهدم التشريع جميعاً ، فإنه مبنى على الأخذ فى الأسباب ، إذ يقول سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم : (وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) ويقول تعالى (يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) ويقول تعالى (يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال) ويقول تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) الآية .

وفى الحديث : « والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه » وغير ذلك كثير من عموم الآى الكريمة والأحاديث الشريفة — ومن المحال مخالفة ذلك إذ الكون كله قائم على الاستعانة والتعاون :

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

فهذه سنة الله تعالى فى خلقه ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) فهم لطمس بصائرهم يتكلمون بدون تعقل ولا شعور حتى يجعلوا من يسأل عباد الله مشركا !! وإذا كان هؤلاء لا يبالون بمفارقة إجماع المسلمين فهل يبالون بالخطأ والتضليل فى فهم الآى والأحاديث ؟

وأما معنى الحديث الشريف (إذا سألت فاسأل الله) الحديث . أى إذا سألت مخلوقاً أو استعنت به فلا تغفل عن الله سبحانه وتعالى ، لأنه هو الخالق لأفعال العباد قال تعالى (والله خلقكم وما تعملون) فهو من إرشاد حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم لأمته أن لا يعتقدوا أن للمخلوق فعلا مستقلا به عن فعل الله تعالى فإن الغفلة عن أن الله تعالى هو الخالق لأفعال العباد تجر إلى قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

وهذا الحديث نفسه أثبت للعباد أنهم ينفعون ويضرون ولكنهم غير مستقلين بذلك ، فالله تعالى وحده هو الضار النافع بأيدى عباده ، قال تعالى : (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) وقال تعالى : (ويذيق بعضكم بأس بعض) .

وإن تشأ فقل علم الله تعالى بأن هؤلاء الضالين سيظهرون فجعل كلام الذى لا ينطق عن الهوى موافقاً للقرآن الذى يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين — كهذا الحديث . وحديث الجارية .

وحديث : ربنا الذى فى السماء . مما يتمسكون به ولا يعقلون له معنى .

ومن أعجب وأغرب أمرهم قول بعضهم : إن الزائر للولى يقف أمام قبره وهو أكثر أدبا منه بين يدى ربه فى صلاته ! ! فكيف يجترىء قائلهم على هذه الفرية ؟ !! (أعنده علم الغيب فهو يرى) اللهم إن هذه دعوى ليس فى الدنيا أغرب ولا أعجب منها ؟ !!

وهذا سيد العالمين الذى علمه ربه علم الدنيا والآخرة يجيب سيدنا خالد بن الوليد بقوله الشريف (إنى لم أومر أن أنقب قلوب الناس ولا أشق بطونهم) وفى حديث آخر (وهل فتشت على قلبه) اللهم ألهمنا الحكمة والصواب .

نبذة فى النـــــذر

وإذا علمت ذلك ، فاعلم أن الكلام فى النذر للأولياء والذبح لهم يكون كذلك ، لأن النذر الذى يعمل باسم الولى إنما هو لله تعالى . لأن النذر لا يعمل إلا فى مقابل نعمة تجرى للناذر ، ولا يجرى النعمة على الناذر إلا من بيده ملكوت كل شىء ، لأن الولى لا يملك شيئاً ، ولأنه تعالى يقول : (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) .

والآية هى المعجزة فى حق الرسول وهى الكرامة فى حق الولى على ما قرره علماء الأمة الإسلامية ، فإن شاء أجراها وإن لم يشأ لم يجرها ، لأنه هو الفعال لما يريد ، وأما قول الفقهاء : النذر لا يكون إلا لله تعالى فهو رد على من ينذر لمن يعتقد أن مع الله إلها آخر كاليهود والنصارى وغيرهم ممن يزعم أن مع الله آلهة أخرى وينذرون لهم . وأما المؤمن فاعتقاده أن الله تعالى هو المنفرد بالفعل ، إن شاء فعل ، وإن لم يشأ لم يفعل وحده لا شريك له ، وأن الأولياء مصادر لظهور نعم الله تعالى على عباده الناذر والمنذور له .

وأما حكم الذبائح فهو : كذبحها للأضياف ، هل سيدنا إبراهيم عليه السلام كان أشرك لما ذبح لأضيافه عجلا سميناً ؟ وهذ الذبح كان لمخلوق وإنه قالوا هذا إنما يكون للأحياء الذين يطلب تكريمهم وأما الأموات فهل يأكلون حتى يذبح لهم فقل لهم إن الذبح للضيف ماهو إلا لبيانه فضله عند الله تعالى لما خصه تعالى به من عظم الشأن لأنه ضيف ولما يترتب على ذلك من إظهار نعم الله تعالى وتحدث الذابح بها وليدارى به عن عرضه . وخاصة إذا كان من الموسرين فيكون داخلا تحت مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (كل ماداري به المسلم عن عرضه فهو صدقة) .

وأيضاً أن المذبوح له لم يأكل من الذبيحة إلا اليسير أو ربما تذبح له ولا يأكل منها لمانع طبي أو عارض شرعي كما يحصل ذلك كثيراً . وأن الذبح للمذبوح له لبيان فضله كما قدمنا . وفي حق الولي في مقابل نعمة الكرامة أو الحب ودوام الود لآل البيت رضوان الله تعالى عليهم الذين أوجب الله تعالى على عباده المؤمنين ودهم . وأهم شيء في ذلك كثرة الآكلة ليعود مزيد الثواب على الذابح والمذبوح له والولي في قبره أحيا من حي الدنيا كما هو صريح القرآن الكريم والسنة المطهرة .
وسيأتي لك بأوضح من هذا إن شاء الله تعالى :

ومن غفلتهم عن إدراك الحقائق جهلهم بسنة الله تعالى في خلقه وإنكارهم أن الشيطان رسول الشر . وقد قال لي قائل أنه اطلع في كتاب الطبقات لسيدى عبد الوهاب الشعراني على خطبة قال فيها صاحبها (الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده وأشهد أن لا إله إلا الله وأن إبليس رسول الله) فقلت له هذا حال العارفين بربهم الذين علموا أن مبدع الكائنات خالق الأرضين والسموات ومن فيهن

أبدع بقدرته ما فى الوجود على حالتين دنيا وأخرى وجعل فى الدنيا الخير والشر والآخرة كذلك .

ومن أهم ما وجد على حالتين العقائد التى عليها مدار تشريع الحق عز وجل لعباده . وهى أهم ما بنى عليه هذا الوجود . ولما كان الأمر كذلك جعل الله تعالى وجود المكلف بهذا على حالتين أيضاً . وجعل ببديع صنعته تركيبه قابلا للحالتين : الخير . والشر . ليقابل بهما المآل فى الآخرة . ثم رحمة منه جل وعلا لم يتركه على ذلك هملا . بل لما كان تكوينه أيضاً على النسيان جعل له من يوقظه وينبهه من جنسه وهم الأنبياء المرسلون عليهم الصلاة والسلام — وهؤلاء يدعونه لتوجيهه إلى ناحية الخير ويذكرون له ضدها ليحذرها . وهى الشر .

وجعل للناحية الأخرى وهى الشر رسولا يدعو إليها ويزينها ويزخرفها للناس فمن سبقت عليه الشقوة والعياذ بالله استجاب لدعوته وصار محارباً بكل وسيلة شيطانية لأهل الخير وهم الأنبياء والرسل ومن على قدمهم من المؤمنين الصادقين — ولو لم يكن هذا الداعى إلى الشر موجوداً لكان النقص ظاهراً فى المكونات — وللزم عليه التزام الناس حالة واحدة وهو غير الواقع قال تعالى (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ولكان إرسال الرسل عبثا لوجود الناس على الفطرة والخير المحض — ولما حاد واحد منهم عن التوحيد المراد له تعالى — ولكان الناس بتكوينهم غير مستعدين لقبول الشر كالملائكة ولكان وجود أحد المآلين وهو النار عبثا .

ولكن لما كان الوجود كله من وضع بديع الصنع تعالى شأنه كان اقتضاء وجود داعيين متضادين لازما . داع يدعو إلى الخير . وداع يدعو إلى الشر . لتحقق ما فى الوجود على مقتضى الحكم العالية . المقابلة .

والمماثلة . مصداق قوله جل وعلا على لسان نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (رحمتى غلبت غضبى) الحديث وهما الأصبعان المرادان فى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (مامن قلب عبد من عباد الله إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن) الحديث . فمن هنا كان كل مافى الوجود على حالتين الرحمة والغضب — حتى فى تكوين أهل الخطاب خلقت الملائكة أولا بصفة الرحمة والجن ثانياً بصفة الغضب وآدم ثالثاً جمع فيه الصفتين (الرحمة والغضب) حتى تراه مشتملا عليها فى تكوينه بدليل مايصدر منه كالحلم والإساءة والكرم والبخل والجرأة والجبن وكل ما تراه فيه متضاداً قال تعالى (مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بصفتى (صفة الرحمة وصفة الغضب) وهما الأصبعان المذكوران فى الحديث السابق .

ولنذكر لك حادثة عرضت لى فى أحد دروسى لهذه المناسبة .

وهى أن أربعة من العلماء جلسوا سويا وقال أحدهم سائلا : هل الله عز وجل كان راضيا عن إبليس وقت أن كان رئيسا للملائكة أو غاضبا عليه ؟ وهل كان غاضبا على عمر بن الخطاب وقت أن كان يئد ابنته أو راضيا عنه ؟ فكان هذا السؤال شديدا فى نفسى لأنى لم أسمع به من قبل ولابنظائره .

ولكنى أجبت فيه بمقتضى معرفتى لله سبحانه وتعالى فقلت إن الله تعالى مخالف لجميع الحوادث وخاصة بنى آدم الذى هو محل نظره من خلقه تبارك وتعالى . وأن الأمور عنده جل وعلا آنية يعنى ليس ما لها بتجدد الأعمال فهو خالق لموجوداته وما يعملون . فخلقه تعالى لإبليس للشر وأنه مصدره فهو غير راض عنه ولو كان رئيسا لأكبر طوائف الملائكة . وماخلقه جل وعلا إلا للتمييز به بين الخير والشر .

وأن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ماخلقه إلا للخير ولو كان قام بوأد جميع بنات عصره . هذا وإن كان لم يظهر الخير فيه واضحا لأنه لم يأت الزمن الذى يظهر الخير فيه واضحا . كذلك إبليس لم يأت الزمن الذى يظهر فيه الشر واضحا . ولـكن هناك أشياء تظهر بها ومنها بوادر الخير والشر يعرف منها المال كعمر رضى الله تعالى عنه كانت مبادئه تلوح عليه لحبه المنعة والعزة والشرف بعكس الأول لحبه الأنفة العظمة والظهور والـكبرياء وما كان فى كل منهما بتكوينه وفطرته التى فطره الله عليها ولـكن لم يأت الزمن الذى شاء الله تعالى فيه إظهار ماخلق كل منهما لأجله .

ولا أذهب بك بعيداً فهكذا حال الناس الآن وما قبل الآن ترى الواحد منهم جامحا عن طاعته لربه ولـكن ميله للخير أقرب فيوفق ويعمل للخير المحض ويختم له بخير ومنهم من يكون فى ظاهره مطيعا . ولـكن حبه للشر أكثر فيسبق القضاء فتسوء خاتمته والعياذ بالله تعالى فهذا من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الـكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم يعمل بعمل أهل النار حتى مايـكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الـكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها) الحديث .

فسكتوا جميعاً وبسكوتهم زادونى حيرة . هل هم رضوا بالإجابة أو هم غير راضين : فلو ردوا على بالانـكار لقاومتهم بالإجابة ولو أيدونى لاسترحت للإجابة . ولـكن سكوتهم حيرنى .

فلما أصبحت اجتمعت بنحو عشرة من العلماء بالمـكتبة الأزهرية الـكبرى وعرضت عليهم المسألة فالجميع قالوا إن الله تعالى كان راضياً

عن إبليس وقت رياسته للملائكة وكان غاضبا على عمر رضى الله تعالى عنه وقت وأده لابنته فقاومت الجميع وصددتهم بالكتاب والسنة فأتى واحد منهم برئيس الوعظ والإرشاد بالإدارة العامة بالأزهر وقتئذ وحاول إقناعى فلم يستطع وانتهى الوقت وصارت لبانة فى ألسنة العلماء وكان فى شهر رمضان وكل واحد منهم يسمر فى جهة فأصبحنا وقد دخل على فى المكتبة الذى كان تزعمهم فى إقناعى والذى جاء برئيس الوعظ والإرشاد فقال مبتدرا لأجل ذلك لم نستطع إقناعك . فقلت فى أى شيء . فقال فى مسألة البارحة بخصوص عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وإبليس عليه اللعنة . فإذا هى منصوصة فى تفسير القرطبى فى الجزء الأول منه .

فقلت والله لا أعلم ولا أدرى أنها منصوصة . إنما عرفت الآن أن السائل كان يقصد تعجيزى .

فالحمد لله تعالى والشكر له جل وعلا حيث جعلنى موافقا لأحسن مفسر محدث رضى الله تعالى عنه وعنهم أجمعين فسبحانه لانحصى ثناء عليه جل ثناؤه وتعالت أسماؤه لارب غيره ولامعبود سواه .

ومن إشكالات الناس كسابقيهم يقول بعضهم حيث أن الحركة والسكون بيده تعالى وهو القاضى بأفعال العبد أزلا وخالقه ميسراً لهذا العمل الذى خلق لأجله فلأى شيء يشقيه ويدخله النار إذ لوكان للعبد أى اختيار ما أقبل على عمل الشقاء المفضى إلى العذاب .

وإنا نقول هذه مبادىء الكافرين ومن على قدم إبليس اللعين من المشركين وغيرهم كما قص تبارك وتعالى علينا عقيدتهم فقال تعالى (وقال الذين أشركوا لوشاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل

إلا البلاغ المبين) وقال تعالى (سيقول الذين لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين) فأمثال هؤلاء ومن نشأوا على استمداد وقبول الشر يوحى إليهم الشيطان لعلهم يكونون من حزبه وشيعته ويقول بقولته ناسجا على منواله حيث قال للملائكة لما قالت له لِمَ لَمْ تسجد مع الساجدين فقال اللعين ولم خلقنى للشر ولم يجمل عباده على الخير الصرف ولما خلقنى كذلك فلأى شيء يعذبنى .

فهو وهم يريدون نسبة الظلم لله تعالى وهل كان للواحد منهم مع الله مشاركة حتى يقترح عليه ويأمره ويكون هو أعلم منه سبحانه وتعالى فيعلمه كيف يكون التصرف فى الموجودات من عباده ويرجع الأحسن على الحسن ؟ ! ! ولأمر ماوقفت الملائكة سكوتا عن إجابة اللعين . ونحن نقول أن عقلاء الأمة الإسلامية الذين هم على قدم سيد العالمين أجمعوا على أن القضاء والقدر من الأسرار الإلاهية التى لا يمكن للبشر الخوض فيها . وماعلى العبد إلا أن يمتثل أوامره جلا وعلا ويجتنب نواهيه بقدر الاستطاعة ويفوض الأمر له سبحانه وتعالى مع الاجتهاد فى ذلك رجاء الخير والله تعالى فعال لما يريد لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وقد وفيت الكلام فيما يأتى مع ضربى للأمثال حتى أجليت فيه كل شبهة بتوفيقه تعالى وسيأتى إن شاء الله فى محله .

ومن نزغات إبليس :

طعنهم على الصوفية ، الذين هم فى أعلى مراتب الدين الإسلامى والتصوف هو سنة الله تعالى فى خلقه من لدن آدم عليه السلام إلى أن

تقوم الساعة وكان أهله يسمون فى الأمم الماضية : بالربانين والقسيسين والرهبان والأحبار ، كما قص تبارك وتعالى علينا ذلك فى كتابه العزيز وتسموا فى العصر المحمدى . فى هذه الأمة بهذا الاسم نسبة لأهل الصفة الذين كان أمرهم إلى الله تعالى صرفا (يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) .

فلو كان لهؤلاء القدم الراسخة فى العلم ، والبحث عن كيف تدون الدين الإسلامى كما بحثوا وتخصصوا فى الضلال وتلمس الأدلة الواهية لشبههم . لعرفوا أصل دينهم ، وكيف انحصر فى أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ وكيف جمع جبريل عليه السلام لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أمور هذا الدين فى ثلاث حين سأله جبريل عليه السلام : عن الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ؟ وكيف قيض سبحانه وتعالى ووجه من عباده لدينه من قام بكل أمر من هذه الأمور الثلاثة فالفقهاء لبيان الإسلام . وعلماء التوحيد لبيان الإيمان . والصوفية لبيان مقام الاحسان الذى هو أعلى مراتب الدين .

لأنا قد عرفنا أن الفقهاء بينوا جميع الأحكام التى اشتمل عليها الإسلام من المعاملات مع الخالق جل شأنه ومع خلقه . وعلماء التوحيد . قاموا ببيان ما لابد منه من عقائد الإيمان ومعرفة خالقهم بالآيات المشاهدات ، وما يجب الإيمان به من الأمور المغيبة حتى صارت يقيناً محققا ، وخاصة ما يتعلق بالمعاد الذى جاء فى الصحيح عمن لا ينطبق عن الهوى صلى الله تعالى عليه وسلم .

وبقى معنا الأمر الثالث للدين وهو الإحسان فمن قام به ؟ غير الصوفية من جميع معانيه . وقد أجمع عقلاء الأمة الإسلامية على ذلك سلفا وخلفا .

ويا ليتهم وقف طعنهم عند حد الطعن فى المتصوفة الدخلاء على الصوفية فحسب ، بل تناولوا عموم الصوفية كما شحنت به جميع كتبهم والتعليق عليها واخراجهم فى كل امساكية لشهر رمضان وليس الغرض من نشرها إلا الطعن فى عموم الصوفية والأئمة الفقهاء الأربعة . ولرئيس أنصار السنة تعليق على كتاب الجواب الكافى لابن قيم الجوازية كله طعن ولعن فى الصوفية .

فلست أدرى هل غرضهم الطعن فى أصل الصوفية ؟ وهى حقيقة من حقائق دين الله تعالى (الإسلام) من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة . وكانت تسمى قبل الدين المحمدى بأسماء غير الصوفية وفى الإسلام أى الدين المحمدى الآن تسموا بهذا الاسم على ما ذكرناه آنفاً وكما سيأتى ما هو أوضح وأبين من ذلك . أو غرضهم الطعن فى المتصوفة أى الدخلاء على هذه الطائفة الشريفة ؟ فان كان غرضهم ذلك فهو باطل من عدة وجوه ، وأظن أنهم لا يعنون الدخلاء لئلا يتناولهم الطعن لأنهم دخلاء على العلم والعلماء والإسلام والمسلمين بل خطرهم أضر على جميع المجتمع الإنسانى لأنهم أداة عاملة هدامة فى نواحى كثيرة من أصل الدين والتفرقة بين المسلمين فى العقائد المشروعة باحداث الخلاف على الدوام وهم مأجورون من الخلق مأزورون من الخالق .

نقول لهم : أولا — إن المتصوفة يتشبهون بالصوفية الحقيقيين لعلهم يحذون حذوهم ويكونون مثلهم وقد قال بعض الفضلاء :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

أو رجاء أن يصلح الله حالهم ومآلهم فيصبحوا من أفاضل الصوفية وقد شوهد ذلك كثيراً ، وكم من شقى أصبح مهتديا صالحا .

ثانياً — إن الطعن فى الدخلاء من المتصوفة كان ينبغى أن يتناول فى

العلماء الآن لأنهم غير السابقين على خط مستقيم فلا وجه لقصر الطعن على دخلاء المتصوفة .

ثالثاً - إن الطعن في الدخلاء أيضا من المتصوفة يتناول الطعن فى جميع أفراد المسلمين لأن ما هم عليه الآن غير ما كان عليه السابقون .

رابعاً - يتناول الطعن أيضا جميع أمراء المسلمين الآن ومن يسند اليهم تنفيذ أحكام الدين حسبما أمر به رب العالمين وحث على العمل به سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم من القضاة والولاة وما شاكلهم لأن ما هم عليه الآن غير ما كان عليه السابقون ، وهذا واضح لا مرية فيه ولا ينكره إلا الماكرون .

فكيف يقصرون الطعن على الصوفية أجمع من غير دليل ولا برهان لا عقلا ولا نقلا إلا ما يتسلمونه من الأمور التى يعجزون عن إدراكها من بعض كلام الصوفية أو ما يدون عنهم من خرق العادات التى جعلها الله تعالى كرامات للأولياء كما جعلها معجزات للأنبياء .

وكيف يصح لمن نشأ فى غير جهة لا يعرف لغاها ؟ ولا مدى فحوى معناها ؟ ويكون هو دخيلا عليهم أن يحكم على عاداتهم واصطلاحاتهم ، ويا ليته يطلب منهم تلك الأمور الغائبة عنه ، غير ناقم ولا معترض عليهم ، فالحق والحق أقول ، أنهم هم الدخلاء على العلم والعلماء والإسلام والمسلمين للتفرقة والتشقيق بين المسلمين وسيأتى توضيح ذلك فى باب الكلام على الصوفية إن شاء الله تعالى .

إحقاق الحق

اعلم أن كل خارجى زائغ عن الحق لن يهديه الله إلى معرفة شىء منه أبداً . ولا تظن ولا يخطر ببالك أنه قد يهتدى ولو إلى مسألة دون غيرها لا تعتقد ذلك أبداً لأن الله تعالى خالقه قد وصفه بأنه أعمى فى هذه

الدنيا وفى الآخرة قال تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ؟ وهل أبصرت أعمى البصر يبصر أحيانا ويعمى أخرى كلا ، فلا شك أنه أعمى فى جميع لحظاته ولو قال لك قائل أنه وافق الإجماع فى مسألة كذا . فقل له كذب وافترى إذ لو ناقشته أو بحثتها لاتجده منطويا إلا على خبث فهم كمن — (أفمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نارجهنم والله لايهدى القوم الظالمين) .

الفصل الثالث

نذكر فيه وفيما يليه أحوال المعارضين لأهل الحق وما ورد فى وصفهم من الكتاب والسنة ليستنير بذلك ذهن القارىء الكريم ويعرف ما عليه أهل الضلال وماعليه أهل الحق وكيف كان أهل الضلال ؟ وكيف هم الآن ؟ وماحالهم إلا كحال من كان على قـــدم إبليس قبل الإسلام ممن عارضوا الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المسلمين .

وهؤلاء قد انتزعوا من ذلك الضلال مايوافق من كان على قدم إبليس فى رأيهم لأن الأصل فى الضلال واحد .فى الإلهيات .والنبوات .والمعادواحد وقد تشعبت من كل واحدة منها شبه كثيرة على مابينا وسنبين .

فأنت ترى الآن مدعيهم من كاتب ومحاضر ويدعى أنه عالم عامل والحق أنه (عامل عالم) كسابقه . حذوك النعل بالنعل . وسابقه كسابقه وسابق سابقه . وهكذا إلى أن ينتهى سنده الشيطانى إلى أول ضال منهم .

على أن أول ضال لايقول بها عن حق وحقيقة ولـكنه يريد بها تضليل من شاء الله تعالى إغواءه فى أتباعه وإجابة دعوته ضد الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من المؤمنين المسلمين قال تعالى (إلا من اتبعك من الغاوين) .

وأذكر لك مثلاً واحداً الآن لتحقق منه فى الرد — وهو أن أول ضال منهم الذى قد جمع لهم مبادىء الضالين — اعتقد أن الله تعالى فى السماء بعد أن أثبت له تعالى عن ذلك علواً كبيراً ما للحوادث من الصفات التى تشبه صفات الحوادث والحركات والسكنات وما أشبه ذلك فما استدل به على ذلك ما حكى الله تعالى فى كتابه العزيز الذى كان يعتقده فرعون وعارض به نبى الله ورسوله .

قال تعالى (ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى) فجعل ذلك الضال قول فرعون حقيقة وأخذ منها دليلا له ، وبذلك يكون قد اتخذ فرعون إماما له . على أن الله فى السماء ، وضم إليها الآيات الأخر : (أأمنتم من فى السماء) (إليه يصعد الكلم الطيب) (إنى متوفيك ورافعك إلى) كما ستعرفه فى ردنا عليه عند ذلك تقريباً . إن شاء الله تعالى وبتلك الأشياء يعرف القارىء أيضا أهل الحق وماهم عليه ، فقد جعلت شبه الضالين ومن على شاكلتهم التى لاتكاد تخرج عن شبه إبليس أولا ، وأهل الكفر والعناد الزيغ والضلال ثانيا .

تلك التى جهل الحقيقة فيها ، من خالف الإجماع والسنة والكتاب. وقلد تقليد الأعمى أمامه الضال المضل وشيخه الذى لم يعرف أن القرآن الكريم جاء بجميع تلك المستحدثات وقد بينته السنة المطهرة بأجلى بيان ، ولكنه لسوء فهمه وعمى بصيرته لم يفطن ولم يتنبه لذلك لتظهر حكمة الله تعالى فى وجود الخلاف والنزاع فى الحياة الدنيا على الدوام كما هى سنته تعالى فى هذه الحياة ، وليكون من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم « وستفترق أمتى » الحديث . فلا محالة من وقوع ذلك

ولذا لم يوفق للنظر فى آيات الله تعالى التى جعلها دلائل على معرفته ، ولا فى كتابه العزيز ، ولا لبيان سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يقتف أثر العلماء العاملين الذين نصبهم الحق عزوجل لحفظ دينه ، وقد استمر الأمر على ذلك سبعمائة سنة مجمعا عليه ممن عرفوا ذلك . وأن أصله الكتاب والسنة .

ثم جاء بعد ذلك من جمع أساطير الخارجين على إجماع المسلمين ونشأ شاذاً مارقاً من هذا الإجماع متبعا لنفسه هواها ، ولقد أحسن من قال :

إذا حكم المرء الهوى فى قضائه
على ما ادعاه فهو أظلم حاكم
وهل يتوق الجور من هو ظالم
إذا اشتبهت بالعدل طرق المظالم

تراه مجتهدا مقلدا فى آن واحد يقلد أحد الأئمة الأعلام ويدعى نسبته لمذهبه . مجتهدا فى المخالفة لأئمة المسلمين فى مستحدثات الكون ، ولم يدر أن القرآن الكريم جاء بكل ذلك .

ولولم يكن القرآن خير كفيل ببيان جميع ما يحدث فى الكون فى الدين والدنيا إلى أن تقوم الساعة ، بل وبعد دخول أهل الجنة الجنة . والسنة المطهرة كذلك . لكان ذلك قصوراً فى القرآن ، وتقصيرا من السنة فى البيان ، وذلك محال . أو يلزم عليه بطلان قوله تعالى : (تبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) (مافرطنا فى الكتاب من شىء) أو يلزم عليه اقتضاؤه لزمان دون كل زمان ، مع بطلان الرد إليه فى قوله تعالى : (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر . ذلك خير وأحسن تأويلا) أو يلزم عليه عدم صدق

الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى البيان الذى قال فيه : « ألا وإنى أوتيت القرآن ومثله معه » وفى أخرى : « وعشرة أمثاله » الحديث . رواه الإمام أحمد فى مسنده .

هذا وكم ترى لهم من الأحكام على البرآء من المسلمين بالكفر والشرك والزيغ بأن يأخذوا بعض الحديث المروى فى صحاح الكتب ويستدلوا على أغراضهم الفاسدة ويتركوا بعضه كحديث « وإن أناساً من أمتى ليذادون عن الحوض » فيقولون لوكان يعرف من ضل من أمته ماقال : « هلموا إلى » حتى تقول له الملائكة « غيروا وبدلوا بعدك يامحمـــد » فيستدلون على أغراضهم بصدر الحديث ، ولايأتون بباقيه ، لأنه يعارضهم لعدم فهم معناه . وآخر الحديث الذى لم يأتوا به هو قوله صلى الله عليه وسلم : والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى » الحديث جميعه يرويه البخارى .

وكقولهم فى الأثر الذى لم يصح منه فى نظر البخارى وعلى شرطه إلا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين جاء حاجا فقبل الحجر الأسود وقال أشهد أنك حجر لاتضر ولاتنفع . ويتركون باقية المروى بتمامه عنــــد أحد أصحاب الكتب الستة التى هى كالبخارى فى الصحة بإجماع علماء الأمة ، ولم أرشدهم إليه ، ولا إلى المكان الذى هو يروى فيه لإبقائهم على جهلهم وعماهم وقصر باعهم فى الإطلاع وهاهو : لما قال عمر رضى الله عنه ذلك ، قال له على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : لا : يا أمير المؤمنين : إنه يضر وينفع إنى لأشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يأتى هذا الحجر يوم القيامة وله لسان زلق يشهد لكل من استلمه » فهو يضر وينفع فقال عمر رضى الله عنه : أعوذ بالله تعالى أن أعيش بأرض لست بها يا أبا الحسن ، لولا على لهلكت » .

وكقولهم فى الحديث المروى عند مسلم : « من حلف بغير الله فقد أشرك » لايفهمون له معنى . ومسلم هذا رضى الله عنه يروى الحديث أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حلف بغير الله فى قوله : « أفلح وأبيه إن صدق » وتؤيده رواية أبى داود عن الفجيع بن الربيع الذى قال له صلى الله عليه وسلم : (ذاك وأبى الجوع) الحديث فهم لطمس بصائرهم لايهتدون إلى معرفة الحق كما سنعرفه فى الرد عليهم .

ومن أعجب أمرهم أنك تراهم يقولون بالإجماع والقياس والاستنباط للاستدلال حينما يحتجون وينكرون ذلك كله عند قيام الحجة عليهم . أو يقولون ببعضها . وينكرون بعضها الآخر فلا تكاد تحكم عليهم بأنهم مقلدون أو مجتهدون ، فهم من قبيل من قال الله تعالى فيهم .

(أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون) ويريدون أن يبدلوا معانى كلام الله وكلام رسوله على حسب أهوائهم — قال تعالى : (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) .

هذا وبتوفيقه تعالى سأعقد لكل شبهة من تلك الشبه بابا مستدلا على صحة ما أقول ، وبيان وجه الإجماع عليه وصحة الأخذ به بالدليل العقلى المطابق للدليل النقلى بالبرهان والمشاهدة من آيات الله تعالى البينات الواضحات موازنا لك بينها وبين الآية من القرآن . أو الحديث الصحيح من السنة حتى تراها ناطقة لك بأصرح بيان وترى السنة جلتها بأوضح تبيان إن شاء الله تعالى .

قد تقدم لك حصر شبه الضالين ومن على مبادئهم ، وهى اثنتان وسبعون شبهة عدد فريق الزيغ والضلال كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يفطنوا إلى أنهم هم الفرقة المكملة للإثنتين والسبعين فرقة ، أو أنهم يمثلون جميع هذه الفرق .

وكان الأجدر بهم أن يرجعوا إلى الكتب المؤلفة فى بيان فرق الضلال والإلحاد ، ليعرفوا أنفسهم من أى فرقة هم ؟ أو إلى شرح هذا الحديث الشريف « ستفترق أمتى » .

ولقد جعلهم الشارع من هذه الفرق . ولقد صدق صلى الله تعالى عليه وسلم فى قوله : « إن لم يكونوا هم فمن هم ؟ » رواه البخارى كما سيتضح لك . وبالرغم من هذا يدعون أنهم هم الأمة الناجية . كما تدعى كل فرقة أنها هى الناجية حتى الفرقة التى تقول : نزل الوحى على على وغلط جبريل وأعطاه لمحمد – وكما تدعى اليهود والنصارى والمجوس والطبيعيون وباقى الفرق .

وليت شعرى من المراد بالأمة فى قوله تعالى : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وفى قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) وفى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « سألت ربى أن لا تجتمع أمتى على الضلالة فأعطانيها » الحديث . وفى أخرى : « لا تجتمع أمتى على الضلالة » الحديث . وسيأتى . وهل المراد بالأمة السواد الأعظم من المسلمين كما بينه سيد العالمين صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث ؟ أو الشراذم القليلة وهى الفرق والجماعات التى قال تعالى فيهم : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) .

ومع هذا كله ، لم يشعروا أن شبههم فى الإسلام لم تخرج عن شبهة أهل الكفر والعناد لتوافقهم معهم فى الإلهيات والنبوات ، والمعاد . هذه الثلاث : هى الأصل لجميع شبه إبليس اللعين وهى سبعة كما ستعرفها ، ومراجعها إلى هذه الثلاث لا غير فى اعتراضه على الله تعالى وإنكاره على آدم عليه السلام واختياره للخير الصرف . وهذه ترجع إلى واحدة فقط ، وهى الحسد . ولا يخفى عليك حال الحسد ، نسأل الله تعالى العفو والعافية . ولقد أحسن من قال :

كل العداوة قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك عن حسد

فقد بان لك ، أن الفرق المخالفة هى غير الأمة التى قد عصمها الله تعالى من الزيغ والضلال . وأنها خير أمة تهدى الى الحق وبه تعدل وهى السواد الأعظم من المسلمين ، وأن هذه الفرق كلها فى الظاهر تنسب لأديانها ، وفى الباطن تابعة لإبليس ، ونسبتهم للأديان كنسبة إبليس إلى العلم أو المعرفة . بل وطمعهم فى نيل مآربهم فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، كطمع إبليس فى الجنة .

ومن أجل هذا ، كنت بتوفيق الله تعالى بمجرد النظر اليهم فى الدرس أعرفهم بسيماهم قبل أن يسألوا ، لأن الله تعالى جعل على الضال مسحة مخصوصة ، يعرف بها . قال تعالى : (يعرف المجرمون بسيماهم) اذ تجد ما فى قلوبهم منطبعاً على وجوههم . جل الصانع المبدع ، جعل على وجه كل فرد من أنواع الموجودات علامة تدل على ما أشتمل عليه فى التكوين واضحة على صورته ، فالحاذق يعرف من الخامل ، والذكى من البليد ، والضال من المهتدى . وهكذا فى كل نوع ثم أخبر جل وعلا عن ذلك فى كتابه العزيز الذى فيه تفصيل كل شىء قال تعالى : (بل آتيناهم بذكرهم

فهم عن ذكرهم معرضون) . (تعرفهم بسيماهم) . (ولتعرفنهم فى لحن القول) . (إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا) . فهؤلاء ومن على شاكلتهم ، لايخفون على من نور الله تعالى بصيرته . وأن زعماءهم يعملون بهذه الدعوة لغرض خسيس دنيوى ، بعقيدة ومبادىء المارق من الدين المفـــارق للجماعة الخالع لربقة الإسلام من عنقه ، المقـــلد لسابقيه ، الذين أطبق علماء الأمة وأفاضلها على أنهم ضالون مضللون خرقوا الإجماع وسلـكوا مسالك الإبتداع . وسيأتى لك إن شاء الله تعالى بيان ذلك مفصلا .

فـكنت أسمع سؤال الواحد منهم ، وأجيبه بما أمرنا الله تعالى بالنظر فيه ، وبما كان يجيب به صلى الله تعالى عليه وسلم أهل النظر . واتبعت فيه أيضاً ارشاد أمير المؤمنين سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرم الله تعالى وجهه لسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما حين بعثه لمحاجـة الخوارج فقال : لاتحاججهم بالقرآن فان القرآن حمـال ذو وجوه ، بل حاججهم بالسنة فانهم لن يجدوا عنها محيصا .

فبتوفيق الله تعالى سلـكت بهم لجأ لم يفهموه ، وطريقا لم يخطر لأسلافهم ببال ، وهم لم يسمعوا به ولم يعبروه ، ولذا أقطع به ألسنة القائلين ، وأطمس به أعين المضللين ، وأنور وأثبت به عقائد الموحدين المهتدين . تـلكم الأدلة العقلية التى لا يمكن لبشر نقضها ، وأحملهم على النظر فى سر التـكوين ، وبيان سر تـكوين الحق عز وجل للموجودات وآثارها ، ومزايا هيئتها وأشكالها وهى الآيات التى أقام الحق عز وجل بها البرهان على هؤلاء وأمثالهم من كشف حالهم وبيان مآلهم . تلـكم الآيات التى قال الله تعالى فيها : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى من كان فى هذه الدنيا أعمى القلب لا يبصر

مرشداً ، ولم ينظر فى آياتنا التى نصبناها دلائل على بديع صنعنا ، وجميل فعالنا ، كان فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة . اهـ بيضاوى .
ولما كان لا يعول إلا على ما يراه ظاهراً وأن الباطن والبصيرة لم يعول عليهما عاقبه الله تعالى بعمى بصره فى الآخرة ، ولذا يقول لربه جل وعلا (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) .

هذا وكم حث الحق عز وجل عباده فى كلامه العزيز على النظر فى تلك الآيات والتفكر فيها ، وإمعان النظر فى أنها آثار الصفات . وقد جاء فى بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم بأوضح دليل وأصرح تبيان . وأجمعت علماء الأمة سلفاً وخلفاً على ذلك البيان ، ولكن بينه وبين عقائد المخالفين منافرة تامة وهى عقبة كؤود فى حناجرهم لا يستطيعون صرفها ، ولا يحاولون تأويلها ، ولا إخراجها . بل هى أثبت اليهم من أحد أعضائهم فى أجسامهم . فهم من قبيل الذين قال الله تعالى فيهم : (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) وقال تعالى : (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) وقال عز شأنه : (وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) .

ويا ليتهم مع مخالفتهم هذه لإجماع المسلمين ، ومفارقتهم لهم ، يقطعون ألسنتهم عن البرآء من المسلمين ، بل ينسبون اليهم التضليل والشرك والمخالفة ، ولم يفطنوا أو لم يستيقظوا من غفلتهم أن الأمة ، والجماعة ، والسواد الأعظم فى أى جانب حتى يركنوا اليه ويعولوا عليه ويحسبوا أنفسهم أنهم منهم . اللهم نور بصائرنا بنور معرفتك يا الله .

بحوله وقوته تعالى نذكر للقارىء الكريم كيفية ما نحن بصدده الآن ، حتى إذا ما قرأه بقلب واع يخرج منه بعقيدة سليمة صحيحة . ودين كريم قد ارتضاه الحق عز وجل دينا لعباده بمقتضى صريح كلامه العزيز . وبيان رسوله الكريم . وعليه أجمع عقلاء الأمة الإسلامية سلفاً وخلفا . وهو أن نذكر أولا : الشبهة التي ضلوا بها ، وخالفوا في فهم معناها جميع الأمة الاسلامية . وبيان وجهة نظرهم فيها ، وسبب المخالفة ، ومن قال بها قبلهم الى من أسس هذه الضلالات . وجمع لهم كل ما في كتب المخالفين للأمة الناجية من المسلمين من قبله . من الحرورية ، الى المعتزلة ، إلى الخوارج ، إلى القدرية ، إلى المنافقين ، الذين كانوا في عصر النبوة والصحابة إلى ضلالات إبليس التي أضل بها الضالين من قبل ، ضد جميع الأنبياء والمرسلين ومن على قدمهم من المؤمنين المسلمين .

وعليك أن تعلم أن الله تعالى ماخلق إبليس إلا للدعوة ضد الحق وأهله ، وأن تعلم أيضا أن كل من كان على هذه المبادىء الخاطئة لا سند له ينتهي به إلا لهذا اللعين . ولا اقتفاء لهم إلا لآثار هؤلاء الضالين .

وسترى في بياننا أن المبدأ واحد ، والعقيدة واحدة . فهم من حزب الشيطان .

إذ لا يخفى عليك أن الله تعالى جعل هذا الوجود في كل شيء على زوجين ، حتى العقائد والدعوة اليها ، وسمى الحق حقا . والضلال ضلالا . ولا ثالث لهما . قال تعالى : (فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون) وكذا الجماعة من كل على زوجين : حزب الله تعالى ، وحزب الشيطان .

ثم بعد ذلك نذكر لك : فساد تلك الضلالة التي يعتقدونها عقلا ونقلا . ثم نبين فيها صحة عقيدة أهل الحق عقلا ونقلا باجماع الصحابة

والتابعين والأئمة المجتهدين ومن تبعهم بإحسان إلى وقتنا هذا . بل إن شاء الله تعالى يكون إلى يوم الدين .

وأيضاً ليعلم القارىء الكريم ، أنه ليس الغرض من هذه الردود جماعة مخصوصة ، بل هي ردود على جميع الضالين من الآدميين في جميع الفرق المارقة . الضالة عن الجادة والحق الصريح كلها ، لأنهم في الحقيقة على مبدأ واحد وعقيدة واحدة ، وهو مبدأ إبليس اللعين . وإن اختلفت مشاربهم في الضلالات ، إذ كلها على منشأ واحد في عدم الاهتداء إلى الحق الصريح الواضح الذي بينه الله تعالى لعباده .

وليعلم أيضاً أن كل من ضل في معرفة الله تعالى فقد ضل في معرفة كل شيء ، حتى المجوس واليهود والنصارى ، ومن على تلك المبادىء الخاطئة من الفرق التي تفرقت في الإيمان والإسلام بمخالفتهم لجميع الأنبياء والمرسلين . لأن الحق واحد لايتعدد . وكذا الضلال . على ماسنوضحه لك إن شاء الله تعالى .

وإني أعني بردي هذا كل داع مخالف لإجماع للمسلمين مما هو شائع بيننا الآن لأني أرى الآن من ينسب نفسه للعلم والعلماء من المسلمين يدعون بدعوتهم الخاطئة ، وضلالاتهم الجامحة ، ويعتمدون على كتبهم في المراجع كلها التي ينقولونها ، إما بالنقل بالحرف الواحد عنهم ، وينسبه الشخص منهم إلى نفسه ، ويوهم به أنه عالم . ظنا منه أن القارىء لايعرف أنه ناقل عن الضال الذي قبله . وإما بتغيير الألفاظ في عباراته ، والمعنى متحد في الضلالة المخزية باجماع المسلمين

ولست أدري ، كيف يترك هذا المقلد الأعمى أقوال الأئمة الذين رأوا الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، الداخلين تحت حديث : « خير القرون قرني » الحديث . ويقلد هذا المتأخر الذي اتخذ سبيل الغي من جميع كتب

مختلفى طبقات المتأخرين ، وهو لم يجىء إلا بعد سبعمائة سنة . وقد انعقد الإجماع فيما دون عنهم ، وساد الأمر بين عقلاء الأمة على ذلك ، حتى ظهر هذا الجامع للفساد ويريد هو اتباع سبيله .

وياليته كان قد جاءهم بجديد ، بل لم يجىء إلا بكل مخالف معروف لأفاضل الأمة قبله وبعده .

وياليت الدعاة لتلك المبادىء الخاطئة الضالين ينقلون المضللين إلى جديد ، بل ينكرون على ماثبت وصح عن خيار الأمة وهم الأئمة ، وقد انعقد الاجماع على صحة جميع مادون عنهم ، رضى الله تعالى عنهم ، فأنت ترى الواحد من هؤلاء المخالفين فى بادىء أمره ينسب نفسه لمذهب سيدى أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه ، وبعد أن يشرب من مشارب سابقيه ، يطعن عليه وعلى إخوانه الأئمة الكرام رضى الله تعالى عنهم ، ويكره إلى الناس اتباعهم ، والاقتداء بهم ، وإذا سألت أحدهم بقولك له : ما مذهبك ؟ يقول : محمدى !! كما ستعرفه إن شاء الله تعالى .

من هم الخوارج والذين هم على شاكلتهم الذين وردت فيهم الآيات والأحاديث . أما الخوارج : فانهم يعرفون بمن كانوا قدخرجوا على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : وإطلاق لفظ الخوارج على من بعدهم لأنهم على شاكلتهم بل ويمتون إليهم بصريح السنة الناطقة بأن من يكون مع الدجال من ضيئضيئهم أى من سلالتهم .

فعلى هذا يكون كل من خرج على ما أجمع عليه المسلمون الآن فهو خارجى بالنسبة لهذا الاجماع كما خرجت أصولهم على إجماع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

ومن هنا كان إخباره صلى الله تعالى عليه وسلم عنهم بأسرار الوحى ومن معجزاته الشريفة بالأحاديث الآتية بأنهم يكونون كذلك لخروجهم على الاجماع : إذ ما أجمع خيار علماء الأمة الاسلامية على حكم من

أحـكام الدين إلا وله أصل أصل فى كتاب رب العالمين وسنة سيد المرسلين وإن لم يكن معمولا به فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم : لأن الـكمال فى الدين فى قوله تعالى (اليوم أكملت لـكم دينـكم) لايعد كمالا تاماً إلا إذا كان مشتملا على الجزئيات التى أخبر الله تعالى عنها بأنها ستحدث ومتى كان الأخبار منه جل وعلا فهى واقعة لامحالة : وخاصة : إذا كان من أسند الله الله تعالى إلى حضرته التبيين والبيان حدث عنه : فيـكون بالنسبة لحضرته صلى الله تعالى عليه وسلم من سنة الأقوال : فهى داخلة فى بيان الأحـكام الدينية والمسائل الشرعية والسنن الـكونية :

وعلى هذا يكون من يعارض هذا البيان المجمع عليه خارجاً عن إجماع خيرة المسلمين . فاطلاق إسم الخوارج عليهم باعتبار هذا الأصل .

وإليك ماورد فيهم بعد الآيات التى قدمنا كما هو فى صريح السنة :

جاء فى صحيح الترمذى عن أبى غالب قال رأى أبوأمامة رؤوساً منصوبة على باب دمشق فقال أبو أمامـــة كلاب النار شر قتلى تحت أديم السماء — خير قتلى من قتلوه — ثم قرأ — (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) إلى آخر الآية : قلت لأبى أمامة أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو لم أسمعـه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أو مرتين أو ثلاثاً حتى عد سبعاً ما حدثتـكموه — قال هذا حديث حسن — وفى صحيح البخارى . عن سالم بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليـه وسلم : أنا فرطـكم على الحوض من مر على شرب — ومن شرب لم يظمأ أبدا ليردن على أقوام أعرفهم ويعرفونى ثم يحال بينى وبينهـم قال أبوحازم فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال هكذا سمعت من سهل بن سعد فقلت نعم فقال أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها فأقول إنهم منى فيقال إنك لاتدرى ما أحدثوا

بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غير بعدي . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة — فمن بدل أو غير أو ابتدع فى دين الله مالا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبعدين منه المسودى الوجوه وأشدهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم كالخوارج على اختلاف فرقها الروافض على تباين ضلالها فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون وكذلك كل من سلك سبيلهم وقد روى فى مسند الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (أخوف ما أخاف على أمتى رجل متأول القرآن يضعه فى غير موضعه) وفى صحيح البخارى (يخرج ناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لايجاوز تراقيهم) . وفى رواية (حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لايعودون فيـه حتى يعود السهم إلى فوقه سيماهم التحليق) .

وعند مسلم من رواية عبدالله بن أبى رافع عن على رضى الله تعالى عنه (يقولون الحق بألسنتهم لايجاوز هذا منهم وأشار إلى حلقه) وفى صحيح البخارى ومسلم والترمذى قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم بارك لنا فى شامنا اللهم بارك لنا فى يمننا) قال نجدى وفى نجدنا يارسول الله فـكرر الأولى . وقال فى الثالثة هناك الزلازل والفتن وبها يطلع قرنا الشيطان كلما قطع قرن ظهر قرن إلى أن يظهر المسيح الدجال) وورد لمـا قتل على ابن أبى طالب كرم الله وجهه الخوارج قال رجل : الحمـــد لله الذى أبادهم وأراحنا منهم . فقال على رضى الله عنه : كلا والذى نفسى بيده أن منهم لمن هو فى أصلاب الرجال لم تحمـله النساء وليـكونن آخرهم مع المسيح الدجال - وقد أنزل الله تعالى فى بنى تميم — (إن الذين ينادونك من

وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون) - ونزل فيهم أيضاً - (لاترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) .

ثم . أعلم أن الخوارج صنف من البدعة يتعدد خروجهم كما صرحت به الأحاديث ومنها ما قدمناه وأول ماحدث مذهبهم فى زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم فقاتلهم الإمام على فقتلهم بالنهروان وكانوا أكثر من عشرة آلاف فلم يقتل ممن معه إلا دون العشرة ولم ينج منهم إلا دون العشرة فانهزم اثنان منهم إلى عمان واثنان إلى كرمان واثنان الى سجستان واثنان الى الجزيرة وواحد الى تل موروون باليمن . وظهرت بدع الخوارج فى هذه المواضع منهم وبقيت إلى الآن لكونهم قد انضم اليهم من مال إلى رأيهم وسبق لك أن آخرهم يكون مع المسيخ الدجال . وكانوا يوم النهر وان أهل صلاة وصيام وفيهم قال النبي صلى الله عليه وسلم كما فى للموطأ والصحيحين وغيرها - تحقرون صلاة أحدكم فى جنب صلاتهم وصوم أحدكم فى جنب صيامهم وأعمالكم مع أعمالهم ولكن لا يجاوز إيمانهم تراقيهم وهم المارقة أى لمروقهم من الدين كما صرحت به الأحاديث قال الشيخ داود فى كتابه صلح الاخوان : ان أول من أظهر كفر أهل السنة والجماعة وتشريكهم هم الخوارج والرافضة وللمعتزلة — والخوارج هم كما فى رواية البخارى ومسلم وغيرهما من سائر كتب الحديث - أناس عمدوا الى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين . قال البخارى فى صحيحه باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم وقول الله تعالى (وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) — وكان ابن عمر يراهم شرار الخلق وقال إنهم عمدوا الى آيات نزلت فى الكفار فجعلوها على المؤمنين — وقال ابن عباس فى قوله تعالى (فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)

وفى الآية الأخرى (فاخوانكم فى الدين) — قال حرمت هذه الآية دماء أهل القبلة وإنما نزلت فى أهل الكتاب والمشركين فجهلوا علمها فسفكوا بها الدماء وانتهبوا الأموال وشهدوا على أهل السنة بالضلال فعليكم بالعلم بما أنزل الله به القرآن — انتهى .

وذكر السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير القرآن بالمأثور قال أخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال المتشابهات آيات فى القرآن يتشابهن على الناس إذا قرءوهن ومن أجل ذلك يضل من ضل فكل فرقة يقرءون آيات القرآن ويزعمون أنها لهم ومما تنبه الحرورية من المتشابه قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ثم يقرؤون معها (والذين كفروا بربهم يعدلون) فاذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا قد كفر وعدل بربه ومن عدل بربه فقد أشرك بربه فهذه الأمة مشركة .

والحرورية الذين ذكرهم سعيد بن جبير هم الخوارج فتبين لك أن علامة الخوارج تنزيلهم آيات القرآن النازلة فى الكفار على المؤمنين من أهل القبلة ولذا لا ترى أحداً من أهل السنة يتفوه بذلك ولا يكفر أحداً ومنشأ هذه البدعة من سوء الظن واتباع العقل وأول من أظهر هذه أصل الخوارج التميمى الذى أساء الظن بالنبى صلى الله عليه وسلم وحكم عقله الناقص لما رآه يعطى بعض الناس كثيراً لحكمة تألفهم على الإسلام . ولضعف إيمانهم . وحرمان كثير من المؤمنين لأكتفائهم بالله ورسوله كما ورد فى صحيح البخارى ومسلم ومسند الإمام أحمد وغيرها اه . .

قد أجمع الأئمة على أنهم ان خرجوا عن قبضتنا أو تضررنا بهم بأن أظهروا بدعتهم أودعوا اليها تعرضنا لهم . ولو بالقتل أو الحرق كما فعل

سيدنا على رضى الله تعالى عنه وأجاز بعض علماء الحديث فقتلهم مطلقاً عملا بقوله صلى الله عليه وسلم كما مر إذا لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم الجزاء لمن قتلهم عند الله يوم القيامة ومذهب طائفة من المحدثين أن الخوارج كفار على ظواهر الحديث وهو الذى ينصره عندنا الرأى السديد والعقل الرشيد المتأمل فى عقائدهم الفاسدة المصادمة لأصول الإسلام الثابتة بالأدلة اليقينية التى يقررها العقل والنقل المنزهان عن الشبه وأدارن المكابرة وخاصة فى خوارج عصرنا . المقلدة . لهم . البلهاء . الذين لا يعرفون شيئاً من أصول الدين وضرورياته الأولية فضلا عن التأويل ومزالقه الصعبة ومما ورد فى أوصافهم أيضاً من الأحاديث ما أخرجه أصحاب السنن والمسانيد أنه صلى الله تعالى عليه وسلم قال : (يخرج فى آخر الزمان أقوام حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من قول خير البرية يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم تحقرون صلاتكم فى صلاتهم وصيامكم فى صيامهم وأعمالكم فى أعمالهم يقرأون القرآن يحسبونه لهم وهو عليهم يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شيء يحسنون القول ويسيئون الفعل هم شر الخلق والخليقة لا يزالون يخرجون حتى يكون آخرهم مع المسيخ الدجال) .

وفى ابن ماجه باسناد صحيح عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ينشأ نشأ يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم كلما خرج قرن قطع قرن) — قال ابن عمر — سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول كلما خرج قرن قطع أكثر من عشرين مرة حتى يخرج فى معراضهم الدجال) — والمعراض بالكسر مصدر عارضه اذا قابله وحازاه — والمراد المقابلة فى الزمان فهو كقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الذى أخرجه النسائى فى سننه وغيره (حتى يكون آخره مع المسيخ الدجال) وفى

آكام المرجان فى أحكام الجان الباب الثالث عشر بعد المائة قال روى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر : ألا إن الفتنة هنا (يشير إلى المشرق من حيث يطلع قرن الشيطان) وفى رواية قال وهو مستقبل المشرق ها أن الفتنة هاهنا ثلاثا وذكر نحوه — وفى أخرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل المشرق يقول ألا إن الفتنة هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان وزاد البخارى فى رواية أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

اللهم بارك لنا فى شامنا . اللهم بارك لنا فى يمننا قالوا يارسول الله وفى نجدنا فأظنه قال فى الثالثة هناك الزلازل والفتن ومنها يطلع قرن الشيطان . ومنها ماروواه ابن عدى فى الكامل عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم باللسان) اهـ .

لعله قد بان لك واتضح من الأحاديث الصحيحة المتقدمة التى هى بيان لآى القرآن الحكيم المتقدمة بتوضيح أوصاف من هم كذلك من أهل الفتن والأهواء والزيغ وأنهم لا يزالون كذلك الى أن تقوم الساعة فهو من أعلام نبوته صلى الله تعالى عليه وسلم . وقد كشف للأمة حالهم وبين لها مآلهم فيكون من باب التحذير من حضرته صلى الله عليه وسلم للأمة الناجية ورأفته بها وحرصه عليها كما قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشهور المروى عند أصحاب السنن والمسانيد (إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فجعل الجنادب والفراش يقع عليها فأنا آخذ بحجزكم عن النار) وكما وصفه الله تعالى بما هو عليه من الرأفة والرحمة والحرص فى قوله جل ذكره — (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) .

وناهيك بما خصه الله تعالى به صلى الله تعالى عليه وسلم دون غيره من جميع الأنبياء والمرسلين وهو قوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم).

ولما أنهينا الكلام على بعض ماورد فيمن هم على قدم الشيطان من الكافرين والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين الذين شملتهم فرق الزيغ والضلال.

أعقبناه لك ببيان الأمة الناجية عند الله تعالى وهى المرادة فى قوله تعالى (كنتم خير أمة) (وممن خلقنا أمة) (وكذلك جعلناكم أمة).

الفصل الرابع

فى الأمة الناجية عند الله تعالى

وبيانها بصريح كلام رب العالمين وبيان سنة سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم — لأنها هى التى تعمل بمقتضى بيان الحق عز وجل بمطابقة الآيات القرآنية للآيات الكونية فهى تنظر إلى أسرار الله تعالى التى أودعها فى مخلوقاته وتأتى كل شىء من بابه وتلتمس تلك الأسرار من مصادرها مع الإعتقاد الجازم بأنه لافعل لمخلوق. وإنما الفعل لله وحده وبذلك ينطبق عليها (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وفى الحديث (لاتجتمع أمتى على على الضلالة) وفى الحديث (والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى) — فإن لم تكن هذه هى الأمة الناجية فمن غيرها ؟.

اعلم أيها القارىء الكريم أن وجود العالم على حالة واحدة من العبث المحض إذ لايعقل الخير من الشر ولايتصور النفع من الضر إلا بوجود الشىء ومقابله. وقد قال العقلاء بضدها تميزت الأشياء وأيضاً.

فإن ذات الحق عزوجل تامة من جميع الوجوه ووجب فى مقتضى الحكمة

إعطاء كل ذى حق حقه وكل من الضدين يطلب كماله فى الظهور فى الخارج ولولا ذلك كنا لا نتعقل كمال ذاته سبحانه وتعالى ولا يحكم لها عاقل بالكمال إلا إذا كانت كذلك يعنى كونها مغايرة للحوادث وجامعة للضدين بمعنى أن عندها ما تفيض به على غيرها إذ لوكانت على الخير الصرف لنقصت الشق الآخر وهو ضده والذى دلنا على ذلك وجود الموجودات حساً ومعنى على تلك الحالات وهى آثار الصفات التى هى متعلقات الذات — هذا وقد رأينا فى جميع أنواع الموجودات بل فى جميع أعيانها بل فى كل فرد من أفرادها المتضادات — قال تعالى (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون) وليس الزوجان فى المتقابلات فقط بمعنى فى الدنيا والآخرة .

وفى الدنيا الخير والشر — وفى الآخرة الجنة والنار لحسب بل فى جميع أفراد الموجودات لاشتمال كل من ذلك على الحالتين الروحانية والجسمانية وأيضاً فى كل جزئية من جزئياتهما . كما لايخفى وفى ذلك كبير الحكم وعظيم القدرة مع إتقان الصنع وجودة التركيب بمراعاة المناسبات والنسب وبهذا جاء التنزيل (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فتور) .

ومتى كان المصدر واحداً كانت نسبة الأشياء الصادرة عنه متساوية فى الكمال فكان من تمام نظام التكوين أن يكون مافى الوجود على هذا الحال كما ترى . وقد سئل بعض العارفين : مامراد الحق من هذا الخلق ؟ فقال : ماهم عليه .

ولايخفى عليك أن مآل الجميع لايخرج أيضاً عن حالتين كما قال تعالى (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) دار لرحمته وإنعامه — ودار لسخطه وانتقامه . وفى حديث الصحيحين عن عبدالله بن مسعود عن

النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وقال (احتجت النار والجنة قالت هذه يدخلني المتكبرون والجبارون وقالت الجنة يدخلني الضعفاء والمساكين قال الله أنت دار رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي . وأنت دار عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ولكل منكما ملؤها) .

ولما كانت الدنيا هي المقابلة للآخرة كانت عكسها على خط مستقيم لأن هذه دار الأعمال بالأسباب المشروعة المعلومة من تكوين الحق عز وجل الموجودات وبه جاء البيان على ألسنة رسل رب العالمين فلا يتأتى فيها حصول شيء إلا بالأخذ في الأسباب .

إذا عرفت هذا فاعلم أن الأمة الناجية هي التي عرفت الحق عز وجل بالأدلة العقلية المطابقة للأدلة النقلية وتجزم بأنه سبحانه وتعالى مخالف للحوادث وأنه ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته وأفعاله فاذا ورد ما يوهم التشبيه فانما يضاف اليه ما يقتضيه كماله من التنزيه المطلق فليس له جارحة ولا مكان ولا يشتمل عليه الزمان وهو الخالق للأمكنة والأزمنة وكل شيء أثر صفاته وهو المحيط بما كان وما يكون لا إله غيره . وهو العزيز الحكيم وجعل سبحانه وتعالى الوسيلة في كل شيء من موجوداته.

ولقد أجمع عقلاء الأمة الإسلامية على أن كل لفظ يحتمل معنيين وكان أحدهما يوجب محذورا يجب العدول عنه إلى مالا محذور فيه .

وأنت تعرف أن وجود شيء لا من شيء محال عقلا فلابد لهذه الموجودات من أصل وهو حقائقها الثابتة في العلم الالهي والمترتب عليها وجودها في الخارج وهي المخاطبة بقول كن إذ الخطاب نسبة بين مخاطب ومخاطب سميع مطيع ولا بد للنسبة من طرفين إذ لو سقط أحدهما لسقطت النسبة .

وتتصف الحقائق العلمية بالثابتة كما تتصف الأمور الخارجية

بالموجودة — وتعرف أن هـذا الأصل لجميع الحقائق الـكلية والجزئية هى حقيقته صلى الله تعالى عليه وسلم كما ستأتى لك الأدلة على ذلك ، ولذا تحبه صلى الله عليه وسلم حبا كما أمر الله تعالى أن يحب . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله) (ومن يطع الرسول فقـد أطاع الله) وللمتابعة لا تـكون ثابتة إلا إذا كانت على أكمل الوجوه من العمل وحسن العقيدة بالـكليات والجزئيات التى جاء بها القرآن المجيد — وتعرف أن القرآن جامع لـكل مايحتاج اليه البشر فى أمور دينه ودنياه وآخرته ماديا وروحانيا وأنه خير كفيل لسعادة الدارين لمن تمسك به ، وعمل بما فيه ، مع بيانه الشريف له صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأنه ليس بقانون فقط ، بل هو شفاء للأحياء من جميع ما يؤلم ، من كل النواحى المادية والروحانية — ورحمة للأموات ، به يرحم الله تعالى من يشاء من عباده . قال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمـة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وسيأتى بيان ذلك — وتعرف أنه كفيل بالرجوع اليه فى القضايا الحاصلة فى الـكون والتى ستحصل على مختلف الأيام وحوادث الأكوان ، صالح لـكل زمان — وتعرف أن من الأحـكام الشرعية ما هو كلى تندرج تحته جزئيات هى كمالات فى ذات الحـكم وليست خارجة عنه ، بل هى من أصل التشريع ولا يقال أنها بدعة ليست منه — وأن كل ما هو كمال فى ذاته فهو شرع داخل تحت كل كلية من كلياته — وتعرف أن القرآن جاء بوجوب العمل بأحكام الاجماع والقياس والاستنباط ، وأنه يجب العمل بها ، وأنها من بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن الله تعالى أوجب على الأمة الأخذ بها ، وأمر به صلى الله تعالى عليه وسلم — وتعرف أن المراد بالأمة المذكورة فى القرآن والسنة ، هى المعصومة من الضلالة — والتى قال

الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم إنها لاتشرك بعده أبداً — هي الأمة التي تعمل بالكتاب والسنه والإجماع والاستنباط ، وهي السواد الأعظم من المسلمين ، لا الفرق الضالة الشراذم القليلة ، التي تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعضه ، وهي التي لاتنسب للقرآن عجزاً في إحاطته ، ولالبيانه صلى الله عليه وسلم تقصيراً وسأوضح ذلك في الأدلة قريباً إن شاء الله تعالى .

وتعرف أن كل فرد من أفراد الموجودات فيه مزية تغاير مزية الفرد الآخر ، وأن هذا الفرد مهما رقى في ذاته فلا يدرك ماعليه تكوين الآخر ولايغنى بمزيته عن مزية الآخر ، ولاينتفع به ماينتفع بالآخر – وتعرف أن جميع الموجودات بماديانها لاتخلو من الأسرار الالهية ، وأن كل موجود له مرتبة خاصة من مراتب الامكان ، لاتخرج عن دائرتها ، والسير في طريقها ، وهي صراطه المستقيم ، والمرتبة الكلية هي مرتبة حقيقته صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي مرجع كل مراتب الموجودات على الترتيب الذى يقتضيه كمال النظام الحكيم ، ولذا تراها تنتج المنافع الدنيوية والدينية والأخروية ، ولاتتخلف عن القيام بما خلقت به ، ولأجله ، وبما انطبع في تكوينها من إفاضة الخير ، أو الشر لطالبيه (ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وإلا لوكان ذلك الشيء الموجود من جماد ونبات وحيوان مجرداً عن الفائدة والمنافع والمضار الدينية والدنيوية والأخروية ، لكان وجوده عبثاً لخلوه عن الفائدة ، وهذا باطل بالبديهة -- ولقوله تعالى (وماخلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لايعلمون) .

فالأمة الناجية تسير في طريقها الذى رسمه الله تعالى لها في نظام تكوينها « كل ميسر لما خلق له » وهذه هي عقيدة الفرقة الناجية التي

عرفت الأسباب المشروعة فتأتى لحاجياتها من هذه الناحية ، وهى بابها الذى خلقت له ، ولايتخلف فيها المطلوب عن طالبه سواء كان من أمر الدين أو الدنيا أوالآخرة مادية كانت أوروحية لاشتمالها على كل المطلوب — قال تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) وباب الخلق خلق (والله خلقكم وما تعملون) فالموجودات وسيلة لابن آدم وفى جوارحه وسيلة الأفعاله .

فتبين لك أن الطالب لها ليس طالباً غير الله لأنه سبحانه وتعالى جعلها مشتملة على ذلك ، والذى جعلها على ذلك جعل حاجتك إليها (فأينما تولوا فثم وجه الله) ففى الحقيقة أنت تطلب من الله قضاء حاجتك بلسان الحال — مثلا أنت تطلب النار من الأسباب المودعة فيها كعود الكبريت أو الولاعة أو الزناد أو ما شا كل ذلك ، فلسان حالك يطلب من الله أن لايتخلف ولسان حالك يرجوه القيام بطلبك وإن كان قد يتخلف عن طلبك . والسكين كذلك وهكذا فى جميع الجماد والنبات أيضاً منه كالدواء وجميع المأكولات والمشروبات وفى الحيوان أيضاً مثل ذلك ، كأن لسان حالك يقول اللهم ذلله ، اللهم أعنه على قضاء حاجتى ، وفى بنى آدم كذلك ، كأن لسان حالك يقول اللهم وفقه لقضاء حاجتى سواء كانت دينية أو دنيوية أو أخروية ، بحسب ما اشتمل عليه تكوين ذلك المطلوب والطالب أيضاً — إذن — فالطالب بالأسباب المشروعة طالب لله ومن الله والى الله ، إذ المخلوق من جماد ونبات وحيوان — ومن الحيوان الانسان — ليس فى مقدوره نفاذ أى شىء — وما قصدناه فى حاجتنا إلا بعد أن عرفنا مميزاته عمن سواه ، وتحققنا بأنه اشتمل بمقتضى تكوينه ، على مايفيض به على غيره إذا شاء من بيده ملكوت كل شىء ، وكان قد سبق فى علمه تعالى بأن هذا يقضى لهذا ، وهذا ينفع هذا ، وهذا يضر هذا ، وهذا يدفع ضر هذا ، وهكذا ، فمن لاحظ صنع الله تعالى

نبيه ، وأن له طريقاً لايشاركه فيها غيره ، وهو فى الواقع صراطه المستقيم ، فى حياته الدنيوية كانت حركاته وسكناته لله بالله ، وإن تشأ فقل : خلق الله الأشياء كلها للإنسان ، فكل شيء فى الوجـــود يعتبر قوة مسخرة لبنى آدم ، فيدك قوة تناولك الغذاء مثلا — والجمل قوة يحمل إليك المتاع ، وهكذا فاذن القوة الانسانية ، تنقسم إلى قسمين : قوة متصلة كيدك ورجلك وقوة منفصلة فى ظاهر الأمر كقوة السكين والنار ، وهكذا ، فالتى تراها بعيدة هى فى الواقع لها بك أتم اتصال (وسخر لـكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه) فنسبة الفعل إلى السبب المباشر حقيقة ، ونسبتها إلى السبب البعيد ضرب من المجاز ، فإذن : نسبة الفعل إلى العبد نسبة حقيقية وعليها تثبت التـكاليف ، ولاينافى ذلك أن الله تعالى خالق لعبده وما عمل — ولايخفى عليك أن الطلب نسبة بين الطالب والمطلوب ، فتى توفرت الشرائط والأسباب ، طلبتك الحاجة كما تطلبها هذا ، وقد تتخلف تلك الأسباب عند عدم إرادة الله تعالى بالنفاذ كعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم ـــ وعدم قطع السكين فى الذبيح ، وغير ذلك كثير ـــ قال تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم) (فسبحان الذى بيده ملـكوت كل شيء) (وكل شيء عنـده بمقدار) وعلى هذا فالطلب سواء كان بلسان الحال أو المقال أو الفعل مشروع ، ولاضرر ولا إشراك فى نسبة الأفعال إلى الموجودات على مابينا لك ذلك . وتأثيرها إنما هو باعتبار مباشرة الأداة لظهور الأفعال ونسبة الأفعال إليها به جاء التشريع ، وعليه أساس نظام التـكوين ، والقرآن العزيز مملوء من هذا ـــ وسنبين ما يتيسر لنا من ذلك فى محله إن شاء الله تعالى .

وقد قلنا فيما تقدم أن أساس التكوين مبنى على المقابلة والمماثلة وبالمقابلة يحصل التضاد والعناد، وبالمماثلة يحصل الائتلاف والارتباط، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سعياً، وكان مثله كمثل من هو فى حاجة إلى الطبيب فيذهب إلى النجار أو الحداد - أو من هو فى حاجة إلى المال فيذهب إلى من يدعو ربه بالغداة والعشى يريد وجهه — وهكذا — وتعرف أيضاً هذه الأمة الناجية التى أنار الله تعالى بصائرها بنور الحق، أن طلاب الحاجات قد جعلهم الله تعالى على قسمين، كما جعل حاجاتهم أيضاً فى قسمين : الأول منهم يطلب حاجته بالأسباب الظاهرة المشروعة، ولا يعول إلا عليها، ولا يحيد عنها، فإذا ما بدت له المصلحة، لا يتطلبها إلا بظواهر الأسباب، وهو محق، وبه جاء التشريع وقد أتى البيوت من أبوابها — ولقوله صلى الله تعالى عليه وسلم « فر من المجذوم فرارك من الأسد » وبهذا يحصل النظام الكونى وهو نفسه خلق لهذا ولا يعمل إلا بهذا، وهناك يجد حاجته وطلبه - والثانى لا يعول إلا على بطون الظواهر وهى مالولاه ماوجدت الظواهر وهى الروحانيات نسبة إلى الروح إذ لا موجود إلا ماهو حى ولا حياة إلا بالروح، فتجده لا يتطلب حاجته إلا فيمن غلبت عليهم الأرواح، وكانت هذه الحالة أقوى ماعليه تكوينه فتكون صلته بربه سبحانه وتعالى، أقوى وأقرب، ويكون ذلك الطالب أيضاً فيه هذا الاستعداد، وتكوينه اقتضى ذلك فلا يعول إلا على هذا، وهو محق وبه جاء التشريع وقد أتى البيوت من أبوابها، ولقوله صلى الله عليه وسلم « لا عدوى ولا طيرة » وبهذا يحصل النظام الكونى وسيأتى ذلك إن شاء الله تعالى مبيناً بأوضح بيان.

هذه هى الأمة التى تعرف ربها عز وجل وتعرف أسرار موجوداته وتقيم على ذلك الحجة الدامغة والبراهين القاطعة العقليـة والنقلية من

الكتاب والسنة والإجماع والقياس هذا ولما كانت الدنيا مزرعة للآخرة فقد عرفت النتيجة بعد الحصاد كما ترى فريقاً للنكال والوبال وفريقاً للحفظ والكمال . وهو الذى أصبح معلوما عند جميع العقلاء فالناس كافة يطلبون الكمال ولكن لايعرفون ماهو ولا كيف هو ولا أين هو فحاروا فى ذلك وخرجوا يتلمسون طريقه فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ـ فكل من أضله الشيطان وأراه مفازة وزين له سوء عمله فرآه ـ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء فظن أن هذا هو الحق . ولسبق شقوته لم يوفق لما عليه جماعة المسلمين واستمر فى طغيانه ومخالفته وحسن له إبليسه أنه على الحق المبين وأن كل الناس فى ضلال مبين ويجمع حوله من العوام من حسنت نواياهم من ضعفاء الإيمان وقد زين له الشيطان أنه صالح للاقتداء به فيقود شراذم قليلة من المضللين يعتقدون أنه إمام الهدى ولكنه :

أمام فى الفساد له رجال　　　يعينون الامام على الفساد

وهكذا فى كل العصور على ممر الليالى والدهور وإن كان لم يفطن إلى أن الله تعالى جعل لكل نمرود إبراهيم . ولكل فرعون موسى . ولكل ضال محمدى .

وهكذا سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا — والكل يتنازعون الحق ويتخاصمون فيه ويجزم كل واحد منهم أنه على الحق ومن عداه على الباطل ويأتى بالآيات والأحاديث العامة المعانى ويتأولها لهواه وكأنها لمبادئه الفاسدة وأباطيله الكاسدة نازلة (كل حزب بما لديهم فرحون) وينطبق عليهم قوله :

وكل يدعى وصلا لليلى　　　وليلى لاتقر لهم بذاك

إعلم أن الحق واضح جلي كالشمس في رائعة النهار وليس دونها سحاب ولا يدرك هذا إلا من شاء الله تعالى هدايته وكان بصيراً ناشئاً على حب ما أمر الله تعالى به بفطرته قال تعالى (الله يجتبي إليه من يشاء) من الأنبياء والمرسلين - (ويهدي إليه من ينيب) — أي إلى المجتبي بدليل عود الضمير إلى أقرب مذكور — قال العلامة البيضاوي — الله يجتبي إليه من يشاء — يجتلب إليه والضمير لما تدعوهم أو للدين «ويهدي إليه» بالإرشاد والتوفيق «من ينيب» يقبل إليه قال العلامةالشهاب على البيضاوي: فأهل الاجتباء غير أهل الاهتداء وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه اهـ. فهم الذين خلقوا مستعدين لقبول الخير — (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب).

فقد عرفت أن هذا لم ينطبق على جميع الناس بل هم قوم مخصوصون أهلهم الله تعالى للإنابة ولهذا نقول إن العقول مضطربة والوصول إلى الحق صعب والأفكار مختلطة ولم يسلم من الغلط إلا من عصمه الله تعالى وهم قليلون فالهداية وإدراك الحق لا يكون إلا بإعانة من الله سبحانه وتعالى وهدايته وإرشاده وكل الخلق يطلبون الهداية ويحترزون عن الضلالة مع أن الأكثرين وقعوا في الضلالة مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (كلهم هلكى إلا ما أنا عليه وأصحابي) وقد بينت لك الأمة التي هي على الحق وأنها هي التي على ما عليه صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه — وإني أبين لك معنى أحقيتها دون الفرق الأخرى وأنها هي التي جاء القرآن ببيانها وأنها هي الأمة الحقة وما عداها هلكى لعملها وإيمانها بجميع كليات وجزئيات القرآن والسنة والإجماع والقياس والاستنباط بالدليل العقلي والنقلي وهي المعنية بقوله تعالى

(كنتم خير أمة أخرجت للناس) (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق) .

الآيات التى لانجاة إلا بالعمل بها

إن الأمة الناجية عند الله تعالى بنص كتابه العزيز وبيان سنة رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم هى التى تؤمن وتعمل بجميع آياته القرآنية والكونية التى بينها جل شأنه فى كتابه المبين .

والآيات جمع آية وهى تشمل آى الذكر الحكيم من فواصل آى السور من الكتاب الحكيم كما فى قوله تعالى : (آلم . ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين) . (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات) . (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) . (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) . وغير ذلك كثير من الآيات التى يعنى بها تلاوة الألفاظ المنزلة من عند الحق عز وجل مع تدبر معانيها .

ومن الآيات مايراد به المعجزات الخاصة بالأنبياء والمرسلين وهى خرق العادات كما قال تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) وما هو من بابه من كرامات الأولياء والصالحين .

ومن الآيات ماهو غير ذلك من كل أثر من آثار صفات الحق عزوجل التى أودعها فى موجوداته من جماد ونبات وحيوان ومياه ورياح وسفن وغيرها مما هو من آثار صفات الحق عز وجـــل وليس فى مقدور البشر الإتيان به ومما هو فى مقدور البشر ولكن بتوفيق من بيده ملكوت كل شىء ومجرى الأسباب فى كل شىء وخالق الأشياء لتأدية ماخلقت لأجله من كل شىء وفى كل شىء قال تعالى فى آى النبات : (وهو الذى أنزل

من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) . وغير ذلك كثير وقال تعالى فى آيات الجماد والدواب والأنعام والناس (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) وغير ذلك كثير وقال تعالى فى آى الإنسان (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) . وقال تعالى فى الآيات الكونية (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) وغير ذلك كثير من الآيات التى نصبها الحق عز وجل دلائل على معرفته وعلى بديع صنعته وعلى وحدانيته و انفراده بالإبداع والإيجاد وأنه الفعال المختار فى كل شيء تلكم الآيات التى من حاد عن معرفتها وضل عن النظر فيما جاءت لأجله وما خلقت له وأنها آثار صفات الحق عز وجل وأنها لم تكن فى الوجود عبثاً بل لحكم عالية قد يعجز البشر عن إدراك كنهها وفهم معانيها .

ومن يغفل عن النظر فى هذه الآيات وما اشتملت عليه من الأسرار

الإلهية فإنه يدخل فى تعداد قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) والمراد بالأعمى فى هذه الدنيا هو أعمى البصيرة لا أعمى البصر قال تعالى (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وأما أعمى الآخرة فهو أعمى البصر فإنه لا يرى آيات ربه التى يقوم الناس عليها لرب العالمين وإنما يسمع بها من غيره قال تعالى (قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه) فهذه آيات قد جعلها الله تعالى حجة قوية قاطعة لألسنة المكابرين المنكرين لها الجاحدين لآثارها .

وقد لفت الله تعالى نظر عباده إليها وحثهم على التدبر فيها والتمسك بها والتعويل عليها فقال عز من قائل (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) فقد جعل جل شأنه التدبر فى تلك الآيات والنظر فى تحقق ما خلقت لأجله برهاناً واضحاً لمن تمسك به وأقام الحجة بها على خصمه ويكون موقناً بوجدها قال تعالى (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وقد امتدحها جل شأنه لما كانت حججاً واضحة لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام حينما حاج قومه فقال تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) . فهذا هو البرهان العقلى والدليل القوى الواضح الصريح المستفاد من الدليل النقلى المؤيد من خالق الأرضين والسموات المنزل على قلب سيد الكائنات صلى الله تعالى عليه وسلم .

ولا يخفى على ذى لب أن هذه كلها مخلوقة لأكمل مخلوق خلقه الله عز وجل لينتفع بها فى جميع مستلزماته وهو الإنسان . قال تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) وقال تعالى (وسخر لكم ما فى

السموات وما فى الأرض جميعاً منه) ووجه الإنسان جل شأنه للنظر إليها بقوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) . فمن نظر فيها وتدبر معانيها وعلم بأسرارها سماه تعالى مؤمناً حقاً . وهم مع ذلك ممن قال الله فيهم : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا) وقال تعالى فيهم (ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) .

ومن لم يتدبر تلك الآيات الكونية والقرآنية وأسرارها ومعانيها فليس بمؤمن حقا قال تعالى (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) .

ومن هنا تعرف أن أول الدلائل وأوضح البراهين من تلك الآيات ما كان مرئيا بالنظر ملموسا باليد مقطوعا به عقلا ونقلا .

وتنقسم الموجودات إلى أجناس ثلاث أو مولدات ثلاث - وهى الجماد . والنبات . والحيوان . فالجنس الأول وهو الجماد من تأمل فيه بعين النظر وأنعم عين الفكر وجد أن تحته أنواعا وأن كل نوع تحته فصول وأن كل فصل تحته أفراد وكل فرد من أفراده جعل الله له مزية خاصة تغاير الآخر . فالحجر يغاير الطوب الذى هو عبارة عن المدر المنوه عنه فى الحديث (أو مدر) فالحجر أنواع كما وصفه الله تعالى بالأبيض . والأحمر . والأسود . وغيرها من باقى الألوان . ومنه الأحجار الكريمة السبع . ومنه الأملاح السبع . والكباريت السبع . والمعادن السبع وهكذا من جميع الأفراد . وقد أغنانا عن ذكر ذلك مفصلا أفاضل المتقدمين فقد أفردوا لها مؤلفات جميلة

بتوفيق الله تعالى لهم فيها وذلك بعد أن لفت الله نظر عباده العقلاء إلى التدبر فى معانيها وماخلقت لأجله . والتدبر فى حكم موجدها وفى تركيبها وفى معرفتها بالله تعالى وتسبيحها إياه تعالى وفى نموها وفى ماينتفع به منها حية كانت أو ميتة وهل حياتها تنعدم وتفنى أو هى بموتها تحيا حياة أحيا من الحياة الأولى وأن الله جل شأنه يجعلها فى حياتها الأخرى أكثر منها نفعاً لبنى الإنسان فى حياتها الأولى وذلك مشاهد لاسبيل إلى إنكاره كما سنعرفه من الأمثلة فليتدبر العاقل وليعلم أن الجماد بموته يحيا حياة أوسع نفعاً من حياته الأولى . وإذا كان هذا حال الجماد فكيف لاتكون جميع الأجناس كذلك . وبذلك تظهر للإنسان آثار صفات الحق عز وجل لتقوى للمعرفة به جل شأنه .

وإليك مثلا لتقيس عليه كل فرد من أفراد تلك الأجناس الثلاثة : فانا إذا أخذنا حجراً مثلا من النوع الأبيض ونعرف أننا ننتفع به وهو حى حياته المعروفة الآن ومما قال الله تعالى فيه (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) والتسبيح لايصدر إلا من حى . وقال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شجر ولاحجر ولا مدر وإلا ويشهد له به يوم القيامة) رواه أصحاب الصحاح . ومن المعلوم أن الشهادة لاتعقل إلا من حى فاذا أمتناه من تلك الحياة بمعنى أننا أحطناه بالنار من كل النواحى فتذهب روحه البترولية فنحكم عليه بأنه قد مات وتفرقت أجزاؤه فنجد أن الله تعالى قد أوجد فيه منافع جمة أكثر من منافعه فى حياته الأولى لأنه فيها لايستعمل إلا فى البنيان فى البيوت والقلاع والحصون والكبارى وغيرها من مستلزمات الإنسان وأما بعد موته بالإحراق فيكون نفعه أكثر وهو أن يؤخذ منه ويعمل منه الصوديوم وغيرها من نوعها والمراهم وتلطيف الحرارة الجلدية وصبغة

الشمر والجبيرة ومن مائه (الـكالسيم) والصابون والمياه الحادة والمياه التى تذيب للمعادن بإضافتها إلى شيء من نوعه وتثبيت البنيان وتبييض الحيطانى . فالفرق بين منافعه فى حياتيه فى غاية الوضوح فمنفعته فى الأولى لاتذكر بجانب منافعه الجمة فى الأخرى .

فاذا كان الجماد بهذه الحالة : أفلا يكون الانسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق نفعه بعد موته أعم وأشمل وأن أثار صفات الحق عزوجل بالنسبة له أتم وأظهر فى حياته الأخرى أفلا يعقل من يقول أن ابن آدم مات وانتهى ولاحساسية له ولانفع ولا انتفاع به بعد موته .

وسيأتى لك ماهو أكثر بياناً فى ذكر حياة وموت الانسان ويكفينا فى هذا المقام المثل المتقدم نقيس عليه جميع أنواع المعادن السالفة الذكر .

والجنس الثانى أو المولد الثانى وهو النبات تقول فيه من حيث التقسيم والتفضيل وموازنة مزايا أفراده بعضها ببعض كذلك وإليك مثلا منه وهو البر المعروف بالقمح فانه ينتفع به فى حياته المعروفة وهو حبوب وطرق استعماله للأكل وهو حى معروفة وأما بعد إماتته بطحنه بحرارة الأحجار وتفرق أجزائه فان نفعه بعد موته أكبر وأوسع فى كافة أنواع استعمال المـأكولات فان بعضها أرفع من بعض وأدق فبأدنى نظر تجد أن نفعه بعد موته أعم وأشمل من نفعه وهو حى فاذا كان النبات كالجماد نفعه بعد موته أكثر من نفعه وهو حى أفلا يكون لانسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق أحيا وأنفع سيتضح لك ذلك ؟ .

والجنس الثالث من هذه الأجناس أو المولدات . وهو الحيوان تقول فيه ماتقدم لك من الأنواع والفصول والأفراد وفى كل فرد من أفراده مزايا تغاير الآخر ونسوق لك مثلا أيضاً : فانا إذا أخذنا كبشاً من الضأن وأمتناه من حياته المعروفة وجدنا فيه بعد موته نفعاً أعم وأشمل من حياته

التى كان يجرى بها فى الدنيا فإنا ننتفع بدمه الذى يسيل منه ومن صوفه وجلده وقرونه وأظلافه وشحمه ولحمه وعظامه التى فيها المنافع الجمة من فسفور ونوشادر ودهن وفحم يكرر به السكر وغير ذلك فإذا كان الحيوان الأعجم منافعه بعد موته أكثر وأكبر أفلا يكون الإنسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق أعم وأشمل .

أفلا ينظر الإنسان نظرة اعتبار بهذه الموجودات التى تعلقت بها آثار صفات الحق عزوجل أنها مغمورة بالفضل والكرامة والجود والاحسان لحكم عالية تجلت فى أعيان الموجودات بما حارت فيه العقول عن إدراك كنهته من ربط المناسبات والنسب برقائق اقتضتها الحكمة وحسن الاختيار .

ولايخفى عليك أن هذه الأجناس الثلاثة ينطوى كل جنس منها على أنواع وفصول وأفراد . وأن فى الأجناس جنساً واحدا هو أعلى الأجناس . وأن فى الأنواع نوعا واحداً هو أعلى الأنواع . وأن فى الفصول فصلا واحداً هو أعلى الفصول . وأن فى الأفراد فرداً واحداً هو أعلى الأفراد . ولولا أن يطول بنا المقام لذكرناها جزئية جزئية وسيأتى إن شاء الله .

ولاشك أن أعلى الأجناس الثلاثة هو الحيوان . وأن أعلى أنواع الحيوان هو الانسان . وأن أعلى أفراد الانسان هم الأنبياء والمرسلون وأن أعلى الأنبياء والمرسلين هم أولو العزم من الرسل . وأن أعلى أولى العزم هو حضرة المصطفى صلى الله تعالى عليه وسلم (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) .

وتفضيل بعض الرسل على بعض يرجع إلى مقدار ما آتاهم الله تعالى من علم ومعرفة به جل شأنه وهم بلا شك يتفاوتون فى ذلك بصريح قوله صلى الله تعالى عليه وسلم (ما أرسل الله رسولا إلا وأعطى من السمة

العلمية بقدر البشر المرسل إليهم) رواه الامام أحمد . ولانزاع فى أن كل رسول أرسل إلى قومه خاصة فكان علمه بقدر البشر الذين أرسل إليهم فالذى هو أكثر قوماً أوسع علماً ومعرفة بالله تعالى وبهذا يعرف التفضيل والتفاوت فى مراتبهم العلمية . ولاريب فى أن سيد المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين . قد أرسله الله تعالى للخلق أجمعين قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وبهذا يكون صلى الله تعالى عليه وسلم أوسع المرسلين علماً ومعرفة بالله تعالى فيكون أفضلهم على الاطلاق . فليس فى الوجود أعلى منه صلى الله تعالى عليه وسلم إلا خالق الوجود سبحانه وتعالى .

وكل مافى الوجود . عبد ورب . قال تعالى (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً) وبما أنه هو أعلى المربوبين فيكون صلى الله تعالى عليه وسلم هو العبد الأسمى الذى لايطلق العبودية مجردة إلا عليه صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى (سبحان الذى أسرى بعبده) وقال تعالى (فأوحى إلى عبده ما أوحى) وقال تعالى (وأنه لما قام عبدالله يدعوه) فهو صلى الله تعالى عليه وسلم الانسان الكامل فى ذاته وصفاته ورسالته وعبوديته .

ولما كان صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل خلق الله كان أول خلق الله ويشير إلى ذلك قوله تعالى (قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين) وقد بسطنا الكلام على هذا فى الكلام على أول حقيقة خلقها الله تعالى وسيأتى بعد باب معرفة الله عزوجل فيما يأتى من الأجزاء إن شاء الله تعالى .

الفصل الخامس

نذكر فيه أدلة الأمة الناجية عند الله تعالى بصريح كلامه العزيز . وبيان سنة نبيه الكريم صلى الله تعالى عليه وسلم . من أنها لا تعمل عملا وخاصة فى المتقدات إلا ولها تمام الاستدلال على ذلك من الكتاب . والسنة . والاجماع . والاستنباط . والقياس .

إعلم أن الأمور التى هى محل تنازع العالم - ثلاثة : وهى الالهيات ، والنبوات ، والمعاد ؛ وهى أصل الإيمان وعليها مدار الأعمال لنيل رضوان الله تعالى واتقاء غضبه . والموفق لادراك معانيها يسمى ممتثلا لأوامر الله تعالى مجتنبا نواهيه وناجيا عند الله تعالى حيث اهتدى إلى الصراط المستقيم قال تعالى - (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) - والسبيل والصراط والطريق كلها بمعنى وهى عبارة عن ملازمة الأعمال الصالحة التى توصل إلى الله تعالى كما شرع والطريق هو الوسط بين طرفين - وحيث كانت الأعمال كذلك فهى الطريق الموصل إلى الله تعالى والطريق إلى الله تعالى لا يكون إلا كاملا من الوجوه لسلامة العاقبة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا وهو الحق الذى شرعه الله تعالى وجعله جامعا لكل أنواع الكمالات والفضائل وأن جزئياته مندرجة تحت كلياته - إذ ان جميع الأحكام الشرعية لا تخرج عن اقواله صلى الله تعالى عليه وسلم وافعاله وتقريراته وهى محصورة بالضرورة والقضايا الحاصلة فى الكون غير محصورة ودخول ما لا ينحصر تحت المنحصر محال - فاذن وجب أن يكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية يدخل تحتها كل الجزئيات التى تكون كمالها فى ذاتها ولا يكون

بدعة إلا ما يخرج عن حد الكمال — ومن هنا وجب القياس فى الأحكام الشرعية — وبهذا ينقطع قول الضالين إن الأمور التى لم تكن فى عصره صلى الله عليه وسلم ولا فى عصر الصحابة بدعة أو نقص فى أصل التشريع ولا يعقل ذلك إذ المشرع فى الحقيقة هو الله تعالى العليم بمصلحة عبادة وهو الذى جعله مستمرا صالحا لجميع الأزمنة لا ينسخ حتى الزمان ينسخ إذ لو لم يكن كذلك لاحتاج العالم إلى بيان آخر لما يتجدد فى أزمنتهم هذا والحمد لله — لو رجعنا إلى كل جزئية من جزئيات الكمال التى أمرها الآن سائد بين جميع المسلمين وتنكرها الفرق الضالة عن الحق لوجدنا أصلها من التشريع الشريف — لأن القرآن كلام القديم والعالم حادث خلقه الله تعالى بما ينطبق على أحكام القرآن فاذن هو صالح لكل زمان ولكل شخص وإلا لما صح قوله تعالى (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) — (وتبيانا لكل شىء) (وتفصيل كل شىء) أو يبطل الرد إليه فى قوله تعالى : (فلو ردوه إلى الرسول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) أولم يشمله بيان الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم . الذى أمره ربه عز وجل فى قوله تعالى : (لتبين للناس ما نزل إليهم) — (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه) — أو يلزم عليه عدم إصابة الأمة التى عصمها الله تعالى من الخطأ والضلالة وشهد لها تعالى بالعدالة بتوفيقه لها للحكمة والصواب قال تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

ومن هنا نعرف أن الله تعالى جعل أوضاع القرآن كلية . ولم يخف ذلك على ذوى البصائر النيرة إذ عرفوا أن الله تعالى جعل سنن تشريع الأحكام لعبادة التى يسيرون عليها على وفق ما تقتضيه أحوالهم بحيث يستطيعون القيام بها رأفة بهم ومراعاة لمصلحتهم الدينية والدنيوية التى

يرتضيها لهم شرعة ومنها . جاءت متتالية على ألسنة رسل من خيرة عباده من جنسهم (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وكلما انتهت حياة رسول أعقبه بآخر ولم يدع عباده هملا ضرورة احتياج نظام الحياة واستتباب الأمن وكمال العمران إلى ذلك وإلا انقلب الناس وحوشا ضارية يأكل بعضهم بعضاً — وكان من جميل صنعه في ذلك جل شأنه ان جعل شرع الرسول الجديد ينسخ الكثير من احكام شريعة من قبله جامعا لفضائل شريعة من قبله زائداً عليها ماينتاسب مع حال من يرسل إليهم — هكذا سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا إلى أن شاء سبحانه وتعالى إرسال آخر رسول لبني البشر بكتاب حافل ليس بجميع الشرائع فحسب بل بكل ما يتعلق بالمبدأ أو المعاد وما يحتاج إليه بنو الإنسان من كل ما يخطر لهم ببال . صالح لكل زمان لا تنقضي عجائبه — وكيف لا وهو تنزيل الحكيم العليم الخبير بجميع مايحتاج إليه عباده فكان ما اشتمل عليه من البيان كرسول لكل زمان — وإن تشأ فقل إن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أوسع الأنبياء والمرسلين علما في كل النواحي لأن علم كل نبي بمقدار حاجة أمته . ولما كانت الأمة المحمدية آخر الأمم كان استعداد أفرادها للقبول شاملا لكل استعدادات الأمم السابقة وكانت أوسع دائرة في القبول فاقتضى ذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوسع علما من كل الأنبياء لذلك كان أفضلهم وشرعه شاملا وكانت أمته خير الأمم .

(الإجماع ودليل وجوب العمل به وإثم من لم يعمل به)

الاجماع هو اتفاق مجتهدي الأمة بعد النبي الله تعالى عليه وسلم في عصورهم على أي أمر كان من النفي أو الأثبات وفي كل عصر وزمان من المسلمين ممن ليسوا من اهل البدع والأهواء — وهو احد الأدلة

التى نصبها الشارع . وعن المزنى أنه قال · كنت عند الشافعى يوما : فجاءه شيخ عليه لباس صوف وبيده عصا فلما رآه ذا مهابة استوى جالسا وكان مستندا إلى أسطوانة وسوى ثيابة فقال له ما الحجة فى دين الله تعالى قال كتابه قال : وماذا ؟

قال سنة نبيه ، صلى الله تعالى علية وسلم .

قال : وماذا ؟ قال اتفاق الأمة ·

قال : من أين هذا الأخير ؟ أهو فى كتاب الله تعالى · فتدبر ساعة ساكتا . فقال له الشيخ أجلتك ثلاثة أيام بلياليهن فان جئت بآية والا فاعتزل الناس فمكث ثلاثة أيام لا يخرج وخرج فى اليوم الثالث بين الظهر والعصر وقد تغير لونه فجاءه الشيخ وسلم عليه وجلس وقال : حاجتى فقال : نعم : أعوذ بالله تعالى من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم قال الله عز وجل (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصلة جهنم وساءت مصيرا) — ولم يصله جهنم على خلاف المؤمنين إلا واتباعهم فرض . قال . صدقت وقام وذهب — وروى عنه أنه قال قرأت القرآن فى كل يوم وفى كل ليلة ثلاث مرات حتى ظفرت بها ونقل الإمام عنه أنه سئل عن آية فى كتات الله تعالى تدل على أن الإجماع حجه فقرأ القرآن ثلثمائة مرة حتى وجد هذه الآية اهـ · فهذه الآية من ادل الدلالات وأصرح الآيات على حجة الاجماع وانه الحجة فى دين الله تعالى بعد كتابه وسنة نبية صلى الله تعالى عليه وسلم وهى الآية التى توعد الله تعالى فيها منكر الاجماع والخارج عليه بأشد العذاب حيث قال عز وجل (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) — لم يصله

جهنم على خلاف المؤمنين إلا واتباعهم فرض وخاصة أن سبيل المؤمنين عام ولا مخصص له قال : العلامة البيضاوى فى تفسير الآية تدل على حرمة مخالفة الاجماع لأنه سبحانه وتعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة . واتباع غير سبيل المؤمنين أما لحرمة كل منهما أو أحدهما أو الجمع بينهما والثانى باطل إذ يقبح أن يقـال من شرب الخمر وأكل الخبز استوجب الحد وكذا الثالث لأن المشاقة حرمه ضم إليهـا غيرها أو لم يضم وإذا كان اتباع غير سبيلهم محرما كان اتباع سبيلهم واجبا لأن ترك اتباع سبيلهم ممـن عرف سبيلهم اتباع غير سبيلهم اهـ وقال تعالى · (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنـكر وتؤمنون بالله) — قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية — « وتؤمنون بالله » يتضمن الإيمان بـكل ما يجب أن يؤمن به لأن الإيمـان به إيمان بحق ، ويعتد به إذا حصل الإيمان بـكل ما أمر أن يؤمن به وإنما أخره وحقه أن يقدم لأنه قصد بذكره الدلالة على أنهم أمروا بالمعروف ونهوا عن المنـكر ايمانا بالله سبحانه وتعالى وتصديقا به واظهارا لدينه واستدل بهذه الآية على أن الاجماع حجة لأنها تقتضى كونهم آمرين بكل معروف ناهين عن كل منكر اللام فيهما للاستغراق فلو اجمعوا على باطل كان امرهم على خلاف ذلك اهـ قال العلامة الشهاب :

قوله استدل بهذه الآية على ان الاجـماع الخ · اى اجماع هـذه الأمة لأنهـا لا تجتمع على الضلالة كما نطق به « الحـديث » ودلت عليه هـذه الآية بالتزام لأنهم اذا امروا بـكل معروف ونهوا عن كل منـكر لم يـكن اجتماعهم على منـكر والا لم ينهوا عنـه لا تفاقهم عليه اهـ · وقال تعـالى (وممن خلقنا أمة يهـدون بالحـق وبه يعدلون) قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية ذكر ذلك بعد ما بين انه خلق للنار طائفة ضالين ملحدين

عن الحق للدلالة على أنه خلق أيضا للجنة أمة هادين بالحق عادلين فى الأرض واستدل به على حجة الاجماع لأن المراد منه أن فى كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله عليه الصلاة والسلام (لا تزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله) — إذ لو اختص بعهد الرسول أو غيره لم يكن لذكره فائدة فانه معلوم — والحديث رواه الشيخان من حديث معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهما والمغيرة بن شعبة رضى الله عنه — وقد قاله فى تفسير الآية — اهـ — وقال العلامة الفخر فى تفسير هذه الآية — . اعلم أنه تعالى لما قال : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس) فأخبر أن كثيرا من الثقلين مخلوقين للنار اتبعة بقوله : (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) — ليبين أيضاً أن كثيرا منهم مخلوقون للجنة .

واعلم أنه تعالى ذكر فى قصة موسى قوله : (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فلما أعاد الله تعالى هذا الكلام هاهنا حمله اكثر المفسرين على ان المراد منه قوم محمد صلى الله عليه وسلم — روى قتادة وابن جريج عن النبى صلى الله عليه وسلم (انها هذه الأمة) — وروى ايضاً انه عليه الصلاة والسلام قال (هذه فيهم وقد اعطى الله قوم موسى مثلها) — وعن الربيع بن انس انه قال قرا النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال (إن من امتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى ابن مريم) وقال ابن عباس يريد امة محمد عليه الصلاة والسلام المهاجرين — والأنصار — قال الجبائى هذه الآية تدل على انه لا يخلو زمان البتة عمن يقوم بالحق ويعمل به ويهدى إليه وإنهم لا يجتمعون فى شىء من الأزمنة على الباطل لأنه لا يخلوا ما ان يكون المراد زمان وجود محمد صلى الله عليه وسلم وهو الزمان الذى نزلت فيه هذه الآية أو المراد

أنه قد حصل زمان من الأزمنة حصل فيه قوم بهذه الصفة المذكورة أو المراد ما ذكرنا أنه لا يخلو زمان من الأزمنة عن قوم موصوفين بهذه الصفة والأول باطل لأنه قد كان ظاهرا لكل الناس أن محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الحق فحمل الآية على هذا المعنى يخرجه عن الفائدة والثانى باطل ايضاً لأن كل احد يعلم بالضرورة انه قد حصل زمان ما فى الأزمة الماضية حصل فيه جمع من المحقين فلم يبق إلا القسم الثالث وهو يدل انه ما خلا زمان عن قوم من المحقين وان إجماعهم حجة وعلى هذا التقرير فهذا يدل على ان إجماع سائر الأمم فى الأزمنة الماضية حجة فى الدين وهو الدليل الثالث الذى ثبت به احكام هذا الدين ا ه هذه ادلة الاجماع التى امر الله عز وجل كل من آمن به سبحانه وتعالى وبنبيه عليه الصلاة والسلام ان يتبعها ويؤمن بها ولا يخرج على اهله وهم الأئمة فى الدين الذين اهلهم الله تعالى ان يكونوا قادة لعباده وكمبة تبيان ما اجمل فى كتابه وسنة نبيه الذين كان الواحد منهم لايثبت الحكم الشرعى إلا بعد ان يأتى عليه بالشهود المستفيضة ولابد أن يكون مصدرها الكتاب والسنة والاجماع . ولا شك ان هذه هى الأمة التى تفهم كليات الأحكام وجزئيات التى لا تفهم حقائق ما اشتملت عليه إلا كذلك وقد قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) اى بمثل هؤلاء الرجال المؤهلين فى كل نواحى اضربه حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وخصة انهم قد وفقوا لفهم بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم وعرفوا انه من حسن بيانه الشريف بين فى كل حكم من الأحكام الكلية حد طرفيه اعلاه واناه وامر بالسير على خيرها الوسط لا إلى جانب الافراط ولا التفريط قال تعالى (وما يعقلها إلا العالمون) . الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى وعنه صلى الله عليه وسلم

أنه لما تلا هذه الآية قال : (العـالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه) .

القيـاس

عرفه الأصوليون بتعاريف كثيرة . والمختار منها عند الآمـدى وابن الحاجب — أنه) مساواة فرع لأصـل فى علة حـكمة . وهو أحـد الأدلة التى نصبها الشارع وأوجب العمل به وذلك لأن أقواله صـــلى الله تعالى عليه وسلم وأفعاله وتقريراته محصـورة والقضايا الحـاصلة فى الـكون غـير محصورة ودخول مالا ينحصر تحت المنحصر محال فإذن وجب أن يـكون فى الشريعةالمحمدية أمور كليةتدخل تحتها الجزئيات التى تـكون كمالا فى ذاتها ولايكون بدعة إلا ما يخرج عن حد الـكمال . ومن هنا وجب القيـاس فى الأحـكام الشرعية على ما قرره العلامة ابن رشد . هـذا وقد قال تعالى : (يا أيهـا الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منـكم فإن تنازعتم فى فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويـلا) قال العلامة البيضاوى فى تفسير الآية يريد بهم أمراء المسلمين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد ويندرج فيهم الخلفاء والقضاة وأمراء السرية — أمر النـاس بطاعتهم بعد ما أمرهم بالعـدل تنبيها على أن وجوت طاعتهم ما داموا عـلى الحق — وقيل هم علماء الشرع لقوله سبحانه وتعالى) ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) « فإن تنازعتم » أنتم وأولو الأمرمنكم «فى شىء» من أمور الدين وهو يؤيد الوجه الأول إذ ليس للمقلد أن ينازع المجتهد فى حكمه بخلاف المرءوس — إلا أن يقال الخطاب لأولى الأمر على طريقة الالتفات« فردوه»

فارجعوا فيه « إلى الله » إلى كتابه « والرسول » بالسؤال منه فى زمانه صلى الله عليه وسلم والرجوع إلى سنته بعده . واستدل به منكرو القياس وقالوا أنه سبحانه وتعالى أوجب رد المختلف فيه إلى الكتاب والسنة دون القياس — وأجيب بأن رد المختلف فيه إلى المنصوص عليه إنما يكون بالتمثيل والبناء عليه وهو القياس ويؤيد ذلك الأمر به بعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فإنه يدل على أن الأحكام ثلاثة مثبت بالكتاب ومثبت بالسنة ومثبت بالرد إليهما على وجه القياس إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » فإن الإيمان يوجب ذلك « ذلك » أى الرد « خير » لكم « وأحسن تأويلا » عاقبه أو أحسن تأويلا من تأويلكم بلا رد — اهـ.
إذا عرفت هذا فاعلم أن القياس هو طلب أحكام الفروع من الأصول المنصوصة بالعلة المشتركة وقد جعله الله تعالى ضروريا فى الدين بقوله تعالى (لتبين للناس ما نزل إليهم) قال العلامة البيضاوى التبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد إلى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل اهـ . وقد تقدم لك الدليل العقلى على أن القياس ضرورى فى الدين وقال العلامة الفخر ثبت جواز العمل بالقياس باجماع الصحابة والاجماع أقوى دليلا من هذا العمل اهـ .

فقد بان لك من كل هذا أن القياس واجب الأخذ به وأنه مأمور به من رب العالمين ومن بيان سيد المرسلين وإذا حكم به المجتهد فقد حكم بما أنزل الله تعالى وإذا تبعه المقلد فقد تبع قول الله تعالى : وقول رسوله صلى الله عليه وسلم اهـ . من الفخر ومن أوضح الأدلة على القياس حديث رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الذى يروى فى الصحاح بالسند لأبى هريرة رضى الله عنه قال : (جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : إن امرأتى وضعت غلاماً أسود فقال له :

هل لك من إبل فقال نعم قال : فما ألوانها قال : حمر قال : فهل فيها من أورق قال : نعم ؟ فأنى ذلك قال : عسى أن يكون قد نزعه عرق قال : وهذا عسى أن يكون قد نزعه عرق .

الاستنباط

هو الاستخراج يقال استنبط الفقيه إذا استخرج الفقه الباطن باجتهاده وفهمه . وهل القياس استنباط أو داخل فيه خلاف . فالاستنباط أيضا أمر ضرورى فى الدين وهو الحجة الخامسة فى دين الله تعالى الذى شرعه لعباده وقد لفت نظرهم إليه فى محكم آياته حيث قال جــل شأنه (ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) قال العلامة الفخر فى تفسير الآية فى أولى الأمر قولان ، أحدهما إلى ذوى العلم والرأى منهم — والثانى إلى أمراء السرايا وهؤلاء رجحوا هـذا القول على الأول قالوا لأن أولى الأمر الذين لهم الأمر على الناس وهل العلم ليسوا كذلك إنما الأمراء هم الموصوفون بأن لهم أمرا على الناس — وأجيب عنه بأن العلماء إذا كانوا عالمين بأوامر الله تعالى ونواهيه وكان يجب على غيرهم قبول قولهم لم يبعد أن يسموا بأولى الأمر من هـــذا الوجه ولقد أحسن من قال :

إن الأكابر يحكمون على الورى
وعلى الأكابر تحكم العلماء

ويدل عليه قوله تعالى : —

(ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعــوا إليهـم لعلهم يحذرون) . فأوجب الحـذر بانذارهم والزم المنذرين قـول قولهم فجاز لهذا المعنى اطلاق اسم أولى الأمر على العلماء ودلت تلك الآية على أن

القيـاس حجة فى الشرع وذلك لأن قوله الذين يستنبطونه منهم صفة أولى الأمر وقد أوجب الله تعالى على الذين يجيئهم أمر من الأمن أو الخوف أن يرجعوا فى معرفته إليهم ولا يخلو إما أن يرجعوا إليه فى معرفة هذه الوقائع مع حصول النص فيها أولا مع حصول النص فيهـا والأول باطل لأن هـذا التقرير ينبغى الاستنباط لأن من روى النص فى واقعة لا يقال إنه استنبط الحـكم — فثبت أن الله تعالى أمر المـكلف برد الواقعة إلى من يستنبط الحـكم فيها ولولا أن الاستنباط حجة لما أمر المـكلف بذلك — فثبت أن الاستنباط حجة — والقياس إما استنباط أو داخل فيه فوجب أن يـكون حجة . إذا ثبت هذا فنقول إن الآية دالة على أمور أحدها أن فى أحكام الحوادث ما لا يعرف بالنص بل بالاستنباط — وثانيها أن الاستنباط حجة — وثالثها — أن العامى يجب عليه تقليد العلماء فى أحكام الحوادث — ورابعها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان مكلفا باسينباط الأحكام لأنه تعالى أمر بالرد إلى الرسول وإلى أولى الأمر — ثم قال تعالى (لعلمه الذين يستنبطونه منهم) ولم يخصص أولى الأمر بذلك دون الرسول وذلك يوجب أن الرسول وأولى الأمر كلهم مكلفون بالاستنباط — ا هـ .

هـذا وقد عرفت من البرهان العقلى المتقدم — أن أقواله وأفعاله وتقريراته صلى الله عليه وسلم محصورة والقضايا أى الحوادث الحاصلة فى الـكون غير محصورة ودخول مالا ينحصر تحت المنحصر محـال فاذن وجب أن يـكون فى الشريعة المحمدية أمور كلية يدخل تحتها كل الجزئيات التى تـكون كمالا فى ذاتها فلا يـكون بدعة إلا ما يخرج عن حد الـكمال .

ومن هنا وجب القيـاس والاستنباط فى الأحكام الشرعية : ذكر

ما يقرب من هذا . العلامة ابن رشد . فى بداية المجتهد .

وأما الذين قالوا إن القياس والرأى والاجتهاد باطلة لا يعرف بها شيء أصلا وأبطلوا القياس أصلا وفرعا وإدعوا أن الحكم لا يثبت إلا بالنص ولا مدخل للاختيار والاجتهاد فيه . فنقول لهم :

إن ذلك النص إما أن يكون متواترا فيوجب العلم ضرورة أو استدلالا أو يكون من أخبار الآحاد . ولا يجوز أن يكون طريقة التواتر الموجبه العلم ضرورة أو دلالة . إذ لو كان كذلك لكان كل مكلف يجب عليه الاذعان بذلك وإذا تعارضت النصوص وتوافقت فى الأمر الواحد لم يميز أحدها بعينه إذ ليس أحد الأمرين أولى بالنص من الآخر . إذن بطل ثبوت النص لعدم الطريق الموصل إليه بعينه فحينئذ يثبت الاجتهاد والاختيار اهـ القرطبى .

ومن أدلة الاستنباط أن الأمام عليا رضى الله تعالى عنه وكرم الله تعالى وجهه قد استنبط مدة أقل الحمل . وهى ستة أشهر . من قوله تعالى (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) مع قوله تعالى (والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين) فإذا فصلن الحولين من ثلاثين شهرا بقيت ستة أشهر .

وكان هذا الاستنباط منقذا لامرأة وضعت من ستة أشهر ورفع زوجها أمرها لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فاهتم بالأمر. فكان استنباط على رضى الله عنه منقذا للموقف وصار حكما فى الإسلام .

ومن أهم الردود على هؤلاء المنكرين من غير القرآن ما كان من معجزاته الشريفة صلى الله تعالى عليه وسلم بأنهم يكونون كذلك فى مستقبل الأزمنة وهو مارواه أبو داود عن أبى رافع رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا أعرفن الرجل منكم يأتيه

الأمر من أمرى إما أمرت به أو نهيت عنه وهو متكىء على أريكته فيقول ما ندرى ما هذا ؟ عندنا كتاب الله وليس هذا فيه . وما لرسول الله أن يقول ما يخالف القرآن وبالقرآن هداه الله » ومما رواه الترمذى عن أبى رافع أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته يأتيه أمرى مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا أدرى ما وجدنا فى كتاب الله اتبعناه » .

ومما رواه أبو داود والترمذى عن المقدام بن معدى كرب قال قال رسول الله صلى عليه وسلم « الأهل عسى رجل » يبلغه الحديث عنى وهو متكىء على أريكته فيقول بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه ، وما وجدنا فيه حراما حرمناه ، وأن ماحرم رسول الله كما حرم الله » هذه رواية الترمذى ورواية أبى داود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا وانى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لايحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد الا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه فان لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه » .

ففى هذه الرواية أراد صلى الله تعالى عليه وسلم أن يبين للناس مما أعطاه الله عز وجل من سعة البيان والتبيين الذى ألزمه تعالى به لعباده مما هو ليس فى صريح القرآن المجيد وهو داخل تحت قوله تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) وهو كثير جدا وهو من مصداق قوله الشريف فى الرواية عن الامام أحمد رضى الله تعالى عنه « ألا وانى أوتيت القرآن وعشرة أمثاله » ففى قوله الشريف

لا يحل لكم الحمار الأهلى ولا كل ذى ناب من السباع ولا لقطة معاهد الى آخر الحديث السابق ليس هو فى صريح القرآن ومثل ذا كثير فى الأحكام الشرعية كحديث ميراث الجدة . وكبيان عدد ركعات الصلاة فى الأوقات وتقبيل الحجر الأسود وغير ذلك مما لا يسعنا ذكره هنا .

فالمطموس على قلوبهم لا يرونه ولا يهتدون اليه والله الهادى وهو الموفق لمن يشاء من عباده .

قد قدمت لك الأدلة العقلية والنقلية على ضرورة حكم القياس والاستنباط والأدلة على اشتمال القرآن عليهما للحاجة البشرية الى كل من القياس والاستنباط فى الدين ، ولا يخفى عليك أن الله تعالى لفت نظر عباده الى ذلك فى كتابه العزيز كما قدمت لك اذ لولاهما لكان القرآن قاصرا عن بيان أحكام القضايا المستحدثة فى مستقبل الأزمنة .

ولا يتفق ذلك مع كونه تبيانا لكل شىء (ولا تفصيل كل شىء) ولم يصدق عليه (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) ولكان بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم قاصرا عن تفصيل كل شىء . كيف . وقد قال الله تعالى له : (لتبين للناس ما نزل اليهم) قال العلامة البيضاوى التبيين أعم من أن ينص بالمقصود أو يرشد الى ما يدل عليه كالقياس ودليل العقل وفى الحديث (ألا وانى أعطيت القرآن ومثله معه الحديث) وفى أخرى وعشرة أمثاله الحديث وفى الحديث (ان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حرف حد ولكل حد مطلع) وقد جاء عن الصديق رضى الله تعالى عنه فى الأثر المشهور « لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى » وقد جاء عن الفاروق رضى الله تعالى عنه فى الأثر المشهور « تحدث للناس أقضية بحسب ما يتجدد لهم فى أزمنتهم » وقال أمير

المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه وكرم الله وجهه كتاب الله فيه نبأ ماقبلكم وخبر مابعدكم وحكم بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله هو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا ياقومنا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به من قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به اجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ا هـ) وقال ايضا رضى الله عنه وكرم وجهه « لو شئت أن اوقر سبعين بعيرا من تفسير الفاتحة لفعلت » ا هـ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه من اراد علم الأولين فليثور القرآن — أى يفتش فيه — وقال ابو الدرداء رضى الله عنه — لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوها — ومثل هـذا من فتح الله تعالى قلبه ونور بالأيمان فؤادة فيكون من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (من عمل بما علم ورثه الله علم مالم يعلم) — هـذا : واعلم ايضا انه لو لم يكن القرآن وبيان السنة مشتملا على القياس والاستنباط لكان الناس فى أشد الحاجة إلى البيان فيما يتجدد لهم بحسب ازمنتهم ويحتاجون إلى تنزيل من عند الله جديد وضرورة ذلك تقضى بإرسال رسول جديد كما هى سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلا ولو كان مقصورا على زمن مخصوص لكان الناس فى شأن العمل به حيرى — فإن عملوا بمقتضى اصل تنزيله والأسباب التى نزل بسببها كان الناس فيه رجعيين — وإن لم يجدوا فيه احكاما تتمشى بحسب ازمنتهم كانوا مخالفين و لكان القرآن تنتهى عجائبه وكان يشبه

كلام البشر لا يعمل منه الا بخصوص سببه لا بعموم لفظه هذا .

ومن بالـغ الحـكمة أن تقول على الله تعالى العليم بـكل شيء بأن حوادث الموجودات لا تقف عند حد فلابد لهم من قانون يرجعون إليه عند التنازع وابتـكار المحدثات ولا نبي بعد خاتم الأنبياء والمرسلين ولا كتاب بعد القرآن المبين فوجب أن يكون القرآن حافلا بـكل ما يحتاج إليه العالم فى كل زمان يرجعون إليه فأوجب القياس والاستنباط وحث على الأخذ بهما وفرضه على أهله وهم يبينونه للنـاس فى كل زمان فهم رجال خصهم الله تعالى بذلك وفتح عليهم بالنظر فى المعقول والمنقول وقد قال فيهم صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله كلما خلق الدين جددوه) وقد سبق أن قدمنـا لك أن من حسن بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أرشد إلى بيان هذه الجزئيات المندرجة تحت تلك الـكليات والسنة بعد القرآن مملوءه بذلك وهى مسألة دقيقة لا ينـكرها إلا من قصر عقله عن ادراكها — هذا ومن حكم الـكبير المتعال أنه أهـّل عبادا من خلقه وجعل فيهم الصلاحيه لفهم من نواحى الـكتاب والسنة ولفت الراغب للنظر فيهما بقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) فمثل هذه الآية تجد مدلولها عاما فى جميع ماوجدمن أنواع العلوم والفنون والمعارف مما هو معلوم الآن ومما مضى سيعلم بعد — فمثـلا لو سئلت — لم كانت دقات قلب الحيوان على خمسة أنواع ؟ فيجيبك الطبيب الحاذق على ذلك أو لما كانت عـدد مفاصل تراكيب جسم الإنسان على ثلاثمائة وستة وستين مفصلا يجيب الطبيب العالم بالتشريح — أو ما نسبة كل عقار للآخر فى تركيب الدواء الفلانى للمرض الفلانى يجيبك الأجزاجى « الصيدلى » — أو كم قطع أى آلة من الآلات

التجارية أو الكهربائية مثلا يجيبك الميكانيكي أو الكهربائي أو هذه الحجرة كم ألف من قطع الطوب أو الحجارة تأخذ على مقدار كذا من الأمتار فى البناء يجيب المعمارى — أو الأردب من القمح كم رغيف من الخبز يجيبك عن ذلك الخباز أو كم قطعة أجزاء الساعة يجيبك الساعاتى وهكذا « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » فمن تأمل بعين الفكر وجد أن الآية الكريمة ما تركت شاردة ولا واردة إلا وقد شملتها فيتضح لك أن الله تعالى خلق عبادا مؤهلين بمقتضى تكوينهم لما خلقوا لأجله (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) فما من فرد من أفرادللموجودات إلا وله فى تكوينه أثر تطلبه منه الحياة وبعد الممات . والممات هو عبارة عن انتقاله من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى وربما كان النفع والانتفاع به فى الحياة الثانية أكثر من الحياة الأولى مادامت الدنيا التى جعلها الله تعالى دار النفع والانتفاع وذلك ثابت بالدليل العقلى والنقلى كما قدمنا آنفا وسيأتى ماهو أبين إن شاء الله تعالى .

وعلى هذا فالموجودات مستمرات بمقتضى تكوينها لهذا فلا تختلف عن إبراز ماخلقت له وعملها ميسر لها بمقتضى ربط المسببات بالأسباب ومن أنتج شيئا من ذلك سماه الله تعالى عالما به وأمر عباده بالرد إليه فيما انبهم عليهم فى شأن هذا العلم « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ومثل ذا كثير فى جميع مختلف الأحكام الشرعية ووسائلها التى لا تعقل إلا بها . فما من ناحية من نواحيها إلا وقد أوجد الله تعالى الجماعة المستفيضة فيها لتكون لهم الحجة بالإجماع على صحة تلك الأوضاع فى جميع أنواع العلوم والمعارف التى تضمنها القرآن الكريم مما هو ضرورى وكمالى لبنى البشر فى مستلزمات حياتهم — إذ الوجود كله فى هذه الدنيا مبنى على ربط المسببات بالأسباب حكمة

بالغة منه تعالى للعباد لوصولهم لأغراضهم فى كل معنى مراد وليترتب على ذلك الثواب والعقاب فى يوم المعاد .

هذا . ولا يخفى عليك أن جميع أفراد الموجودات قد خلقت مشتملة على حالتين حالة مادية وحالة روحية . فتعمل الأعمال المادية بمقتضى تكوينها الذى خلقت له الماديات وهذا مايسمى بالأسباب الظاهرية وتؤدى الروحانيات بمقتضى تكوينها الذى خلقت له الروحانيات وهذا ما يسمى بالباطن والحقيقة والأسرار .

ولا يخفى عليك أيضا أن لله تعالى فى خلقه خصائص ومميزات . فقدجعل سبحانه من بنى آدم من تكون المادة فيه غالبة على روحانيته فهذا لا ينظر إلا إلى الظاهر ولا يعول إلا عليه ولا ينتظر النتيجة إلا منه . وهذا هو الجم الغفير والعدد الكبير من الموجودات ولا تعمر الدنيا إلا بذلك وبه جاء التشريع وبيان الرسل عليهم الصلاة والسلام لبيان حكمة التكاليف الشرعية .

ومنهم من جعل الله تبارك وتعالى روحانيته غالبة على ماديته وهذا لاينظر إلا إلى تلك الأسرار ولا يعول إلا عليها ولا يسأل إلا أهلها ولاتنتج له الأعمال إلا منها .

بهذا كله جاء القرآن الكريم قال تعالى فى الروحانيات « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » وقال تعالى « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون » وقال تعالى فى الماديات (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) وقال تعالى فى مجموع الأمرين (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد

ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) .

هذا وقد لفت الله تعالى نظر عباده على لسان حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم فى كتابه العزيز إلى أن من عباده من لا شأن لهم بالحياة الدنيا إلا بالتعلق الروحانى لقوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » وفى هذا الشأن قال صلوات الله وسلامه عليه : « أبغونى الضعفاء فإنما تنصرون بضعفائكم بدعواتهم وتحويطاتهم » فأهل الروحانية هم أهل الله وخاصته ومن جعله الله تعالى مصدرا لآثار فعل من أفعاله جل شأنه تنسب إليه تلك الأفعال مادية كانت أو روحانية وإليك الآية الفذة الجامعة التى ما تركت صغيرة ولا كبيرة من جميع أقوال وأفعال العباد إلا واندرج تحتها قال تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » إذ نتائج الأعمال لا تخرج عن القول أو الفعل أو ماتركب منهما .

ولا يخفى عليك إجماع عقلاء الأمة من المحققين على أن فى طى ظواهر الآيات القرآنية إشارات خفية تنكشف لأهل التحقيق من رواسخ العلماء ومعرفة ذلك بمحض الإيمان وكمال العرفان . وقدمنا لك فى قوله تعالى « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » أن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم مكلف بالاستنباط بأنه تعالى أمر بالرد فى المختلف فيه إلى الرسول وإلى أولى الأمر ثم لما قال تعالى (لعلمه الذين يستنطبونه منهم) ولم يخصص أولى الأمر بذلك دون الرسول أوجب ذلك أن الرسول وأولى الأمر كلهم

مكلفون بالاستنباط — ثم قال تعالى (لتبين للناس مانزل إليهم) فالتبيين أعم من أن ينعى بالمقصود أو يرشد إلى مايدل عليه كالقياس ودليل العقل وقد سبق أن من حسن بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه أرشد إلى بيان هذه الجزئيات المندرجة تحت تلك الكليات كقوله للسائل عن الفرائض وفى كل فرض يقول السائل « وهل على غيرها ؟ » فيقول صلى الله تعالى عليه وسلم « إلا أن تطوع » الحديث فى الصحاح ومنها قوله صلى الله تعالى عليه وسلم عند الإمام أحمد « مارآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن » وفى الصحاح « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها » الحديث. ولا يفهم هذا البيان ويشرح للأمة ما انطوت عليه ظواهر القرآن إلا من أوجدهم الحق عز وجل وأهلهم لذلك بمقتضى تكوينهم لحفظ دينه ووضع دعائمه التى تبنى عليها جميع مستلزمات ذلك الدين الخالد الأبدى الذى لا يبطله ولا يغير ما فيه جور جائر ولا عدل عادل ما بقيت الدنيا قال تعالى (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) أى برجال أهلهم ووفقهم للعمل بكل مايحتاج إليه فى جميع أضربه كى لا يتسوره متدلس ولا يتطرق إليه مارق مغرور مجنون مفتون.

مهمة ودقيقة

وهى من الأمور التى قد ضل عنها أول ضال لهم ولم يعرف طريقها أحد من أتباعه وهى مسألة من المسائل الدقيقة التى لا يفهمها الا أولو النهى. لا من قصر عقله عن فهم حقائقها وهى أنه مما يلحق بمختلف أنواع التشريع معرفة أسرار الأفعال الإلهية التى هى من أصل حكمة التشريع وهى تظهر عند ربط المسببات بالأسباب وقد لا تكون إلا لخرق العادة أو للتشريع أو لبيان سنن الكون مما يصوره الحق

عز وجل على يدى من خصه بذلك من عبادة فتكون لحكمة لا يعلمها إلا هو . سواء أعلمها من أجرى الله تعالى على يديه هـذا العمل أم لم يعلمها ويكون قائما بذلك العمل كباقى الموجودات التى تؤدى بمقتضى تكوينها ماخلقت لأجله وهى من الأمور التى ذكرها الحق عز وجل وجعلها دلائل المعرفة فى مثل هـذه الخوارق وأنه شرعها تعالى لعبادة فلا تنكر على أهلها وهاك قصة سيدنا موسى عليه وسلم مع سيدنا الخضر عليه السلام راجع بيان الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى الكتب الصحاح من السنة المطهرة بين البصيرة تنكشف لك حقائق ترى تحتها العجب العجاب من حكم رب الأرباب وسماه علما يخص به من يشاء من عباده فلا يسأل فيه إلا أهله وهو أحـد العلوم الثلاثة التى عنى الله تعالى بذكرها فى كلامه العزيز وما عداها فهو وسائل لمعرفة تلك العلوم التى لم يرها الضال الأول لهم ولم يشم لها رائحة متابعوه للآن ولم يسمع بها أتباعهم .

وإليك أيضا علم خواص الأسماء والصفات التى للحق عز وجل وكيفية تأثيرها فى الموجودات . وكيف تنفعل لها الكائنات (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يريد إليك طرفك) فمثل هـذه الأحوال التى جاءت مبينة بالكتاب العزيز والسنة المطهرة فلا يسأل عنها إلا أهلها وما يصدر عنها من الخوارق للعادات لا يكون إلا بمحض إرادة تعالى وسبق علمه بما يصدر من الأعمال بكل جزئية من الحركة والسكون والزمان والمكان والأشخاص فلا شيء عنده جـل شأنه إلا بمقدار . قال تعالى « وماكان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله » وإذا كان الرسول لا يأتى بآية إلا بإذن الله فيكون غير الرسول من باب أولى هـكذا يجب الإيمان بذلك فى مثل هذه الخوارق ونسبة هـذا الفعل إلى العبد لجريه على يديه نسبة حقيقية .

والفعــل فى التــأثير ليس إلا

للواحــد القهــار جل وعــلا

وحينئذ يكون عمل العبد داخلا فى تــكوينه وهى مسألة دقيقة لا يعلقها الا العالمون لا من قصر عقله عن ادراكها . وصحت نسبة الفعل إلى العبد إذ هو للمباشر للفعل وبذلك تصح نسبة الفعل الية حقيقة إذ لا واسطة بينة وبين الحركة إلى الفعل وبهدا يجزى به اثابة أو عقابا .

ثم إن هؤلاء الأشخاص الذين جعلهم الله عز وجل مصدرا لآثار صفاته بمقتضى تــكوينهم حرق العــادة ما بطريق الفيض المطلق الذى يختص الله تعالى به من يشاء من عباده فيكون من قبيل قوله تعالى (وعلمناه من لدنا علما) وإما بطريق الجد والاجتهاد والتوفيق الإلهى بعد معرفة الأسباب التى شرعها سبحانه وتعالى لعباده وسلوك الطريق حتى وصل للغاية المطلوبة التى شاء الله تعالى له فيها فيــكون من قبيل قوله تعالى« إنما أوتيه على علم عندى » وكل هذا من فضل لله تعالى على عباده قال تعالى « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون » وقال تعالى « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » وذلك مثل ما أعطى الله تعالى لأهل الدنيا وزينتها فمنهم من تراه لا يفقه شيئا ولــكن الله تعالى قد أغدق عليه الرزق من كل النواحى وهو لم يأخــذ فى الأسباب مغلوقا عليه شيئاً ومنهم من تراه مغلوقا عليه مع أو منهم من تراه محصلا الضرورى بالأخذ فى الأسباب ومنهم من تراه لو اتجر فى الزيت لمحا الله آية الليل ومثل هذا فى أهل الأسرار السائرين إلى الله المفاض عليهم كل بقدر ما خلق لأجله :

ولم تكن نبوة مكتسبة

ولو رقى الخــير أعلى عقبه

ذاك بل فضل الله يؤتيه لمن

يشاء جل الله واهب المنن

وإذا كان هذا بمحض فضل الله تعالى وبه اقتضاه تكوينه لعبده وخصه به فى هذه الحياة الدنيا فكيف يسلبه إياه برجوعه إلى الحياة الآخرة التى هى أحيا من حياة الدنيا وأعظم وأكبر وأوسع وكيف هذا العبد يعدم هذه الخصوصية ويفقد هذه المزية بعد أن يخرج من القيود الدنيوية إلى الإطلاق الأخروى . وخاصة أهل الأسرار الذين قال الله تعالى فيهم فى الحديث القدسى « كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به » الحديث .

هؤلاء الذين جعل الله تعالى تكوينهم على ذلك وجعل الموجودات تنفعل لهم متى شاءوا « وما تشاؤون إلا أن يشاء الله » فإنها لا تتأخر عن طلبهم وهى مخلوقة لهم كذلك . إذ هو فى هذه الحالة العبد الذى تحققت فيه العبودية فيقول للشىء كن فيكون ولقد أحسن بعض العارفين بأسرار المكونات للحق عز وجل وحكمة وجودها فقال :

من ذاق طعم شراب القوم يدريه

ومن دراه غدا بالروح يسريه

بهم تصرفه فى الكائنات فما

يشاء شاءوا وما شاءوه يقضيه

وفى هذا المعنى أيضا قال بعض العارفين بالله تعالى وبأسرار موجوداته وحكمة وجودها .

إذا ما رأيت الله فى الكل فاعلا

رأيت جميع الكائنات ملاحا

وإن أنت لم تشهد إلا مظاهر صنعه

جهلت فصيرت الملاح قباحا

فلست أدرى يا أخا العقل إن لم تكن هـذه للموجودات هى مظهر آثار الصفات وهى أفعاله المرادة له جل وعلا ففى أى شىءتظهر آثار تلك الصفات؟ وكيف بغيرها يعرف عز وجل ؟ ومن بغيرها يعرفه تبارك وتعالى ؟ وما أجمل قول العارف أيضاً حين سئل عن حكمة وجود هذه الموجودات بقول القائل له ما مراد الحق من هذا الحق ؟ فقال ما تراهم عليه . نسأل الله تعالى تنوير البصر والبصيرة حتى تتحقق بنور اليقين . .

الفصل السادس

نذكر فيه حكم الغيبة فى الشرع فنقول :

مما تجب مراعاته ولفت النظر إليه ، حكم الكلام فى الغير حيا وميتا ، غائبا وحاضرا .

وهذه مسألة قد اضطراب فيها كلام الناس بتثبت وغير تثبت وهى هل الكلام فى حق الناس عموما وخصوصا جائز أو غير جائز ؟ وأيهما أكمل وأفضل ؟ وماحكم الغيبة فى هذه الحالة ؟ فنقول : ـ

إن الكلام فى الناس يختلف بحسب الدواعى والمقتضيات من الأحوال إذا قد يكون الكلام حراما فى حالة ويكون واجبا فى غيرها وإنا معشر المسلمين يجب علينا أن نقتفى كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين إذ قد أمر الله تعـــالى أنبياءه فى بعض مواضع الدعوة إليه تعالى بالرفق واللين وفى أخرى بالشدة والغلظة كل ذلك فى القول والفعل وعلى هذا كان بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم قال تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (المسلم أخـــو المسلم) الحديث وفى الآخر (وكونوا عباد الله إخوانا) الحديث وقال تعالى (وليجدوا فيكم غلظة) وقال تعالى : (جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ

عليهم) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (بئس أخو العشيرة أو أخو القوم) الحديث يرويه البخارى وهذا بالنسبة للدواعى وللمقتضيات — وأما بالنسبة للعقائد والصفات — فقد لعن الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم المجوس واليهود والنصارى والمشركين وللملحدين وأباح للناس لعن هؤلاء ومن على شاكلتهم فى المبدأ والعقيدة مهما اختلفت طرائقهم وأحوالهم قال تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (أترعون أن تذكروا الفاجر بما فيه ؟ أذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) رواه مسلم هذا ورتب الله تعالى الوعيد الشديد لمن يتخطى معانى كلامه العزيز وبيان رسوله الكريم وما أجمع عليه عقلاء الأمة فى قوله تعالى (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) — وقد سمى الله تعالى كل هذه الفرق وبينها فى كلامه العزيز وأمر رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يجاهرهم بها وجعل المجاهرة بها دينا فقال تعالى (لايحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) وفى الحديث (بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أن لا تأخذنا فى الله لومة لائم) الحديث وفى هذا القدر كفاية لأن الكلام فى هذا الميدان واسع ، لايسعنا تفصيله فى هذا المقام .

وأما جواز ذلك وعدمه فإنه يختلف باعتبار حال المتكلم والمتكلم فيه فإن كان المتكلم عاملا بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم فانه لايضيره مهما كان المتكلم فيه . كحال من سأله الحجاج وكان مشهورا بحفظ القرآن قائلا ما هو ركوب قوله تعالى (أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما) فقال له ركوبها قوله تعالى (قل تمتع بكفرك

قليلا إنك من أصحاب النار) . وآخر قال : له أيضا فى وجهه لما سقط الحجاج فى البحر فسقط عليه مسرعا وأخرجه فقال الحجاج أترجو جوارا أم نوالا وتعرف أنى ظالم قال خشيت أن تموت غريقا فتكون شهيداً . وكسعيد ابن المسيب وغيرهم وغيرهم حتى فى زماننا هذا ممن حفظهم الله تعالى بقوله (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) . وبقوله تعالى : (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) فهؤلاء ومثلهم يجوز لهم الكلام لأنهم على قدم الرسل ولا تأخذهم فى الله لومة لائم وقليل ما هم فى كل عصر والحمد لله أرجو الله تعالى أن أكون منهم إذ بتوفيقه تعالى كم لى من المواقف مع من يستحيل لغيرى أن ينطق أمامهم ببنت شفة .

وأما غيرهم وهم ضعفاء الإيمان فلا يجوز لهم ذلك لئلا يلحقهم الضرر وهم فى الواقع لا يتكلمون لأن الله تعالى جعل فى عبادة خلقا مخصوصين أهلهم بمعنى أنه جعل فى تكوينهم هذا الاستعداد وذلك أما أن يكون الله قد جعل لهم نفوذ الكلمة برياسة أو غيرها كما حصل من سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لما ولى معاوية على الشام وكان قد ذهب أبوه لزيارته فلما حضر بزخائر من الشام أرسلها إلى منزله وجاء بنفسه إلى عمر رضى الله عنه فنظر عمر إلى يد أبى سفيان فإذا بها خاتم فقال ما هذا ؟ قال خاتم . فقال أرنيه فخلعه أبو سفيان وناوله أياه فناوله الفاروق رضى الله تعالى عنه لرجل فأرسله به إلى بيت أبى سفيان وقال قل بأمارة هذا هاتوا كل ماجىء به من الشام فجىء بها فقال عمر رضى الله عنه : أكان لابنك هذا حين ولى ؛ وضمه لمال المسلمين - ومثل هذا من خير المسلمين كثير .

وأما أن يكون بطريق العمل بالكتاب والسنة فلا تأخذهم فى الله لومة

لاثم — ومن عدا هؤلاء فعدم كلامهم أولى بهم . وهم بطبعهم يجنحون إلى قوله تعالى (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وهم لا يعرفون للآية معنى فإن الاهتداء لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد روى الترمذى . عن قيس بن أبى حازم رضى الله عنه . قال : قال : أبو بكر . بعد أن حمد الله وأثنى عليه : يا أيها النـــاس ، إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها غير موضعها (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) وإنما سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب . الحديث والله تعالى يقول فى هذا (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) . ويقول تبارك وتعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) ويقول تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما) ويقول صلى الله تعالى عليه وسلم « لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر » الحديث « والجهاد ماض » الحديث وخاصة العلماء العاملين فالله تعالى أوجب عليهم الجهاد كما أوجبه على الأمراء وكافة المسلمين وفى هـــذا القدر كفاية .

وأما الغيبة التى هى عبارة عن ذكرك الشخص بما يكره فإنها تختلف باختلاف الأمر الداعى إليها وذلك الأمر الداعى أما أن يكون بفعل تنفر منه طباع العقلاء بما يخالف الدين وما عليه جماعة المسلمين فإن الكلام فيه يرجع إلى ما تقدم بمعنى أنه يجب ردعه ورده إلى الدين وبيان أخطائه والهيمنة عليه بكافة الطرق الرادعة له — وأما أن يكون عن هوى فى نفس المغتاب فترجع الغيبة إلى الحقد والحسد وخاصة إذا كانت عن سبب دنيوى فهى حرام بالكتاب والسنة والإجماع ويدخل فى الكلام الغمز والهمز واللمز أيضا .

والغيبة كما تكون حراما فى مواطن قد تكون واجبة فى مواطن أخرى . (اجعل دليلك فى كل شىء حتى فى الغيبة : الكتاب والسنة . والإجماع فلا تخطىء أبدا وتنجو عند الله تعالى . والناس) .

والنميمة التى هى عبارة عن السعى بين الناس بالفساد بكلام مبالغ فيه أو غير مبالغ وهى من الفتنة التى جعلها الله تعالى أشد من القتل فهى حرام بالكتاب والسنة والإجماع والكلام فيها يرجع إلى سابقه وفى هذا القدر كفاية ومن أراد الزيادة فعليه بمحله فالكلام فيه مبسوط هناك .

وأما الكلام فى المخالفين المارقين من الدين الخارجين على الكتاب والسنة وإجماع المسلمين فحسبنا فيهم ودليلنا عليهم كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين — فإن جعلنا أنهم يكتمون معانى الآيات التى نصبها الحق عز وجل دلائل على وجوده وعظيم قدرته وآثار صفاته فقد قال تعالى فيهم (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) — وهذا أكبر دليل على جواز لعنهم . وإن جعلنا أنهم يأخذون بالمتشابه ويؤولونه بحسب أهوائهم فحسبنا وصف الله عز وجل لهم قال تعالى (فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) قال تعالى (ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون) . وإن جعلناهم خارجين عن الدين فقد قال تعالى (أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم) . وإن جعلناهم لايتمسكون إلا بظاهر الآيات والأحاديث فقد قال تعالى فيهم (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) — (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) . وإن جعلناهم

خارجين على الاجماع فقد قال تعالى فيهم (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا) هذه الآيات وغيرها كلها يأتى بيانها عند ذكر الرد عليهم كل فى بابه وكذا أحاديث السنة واجماع الأمة إنما ذكرت هذه الآيات هنا استشهادا على جواز الكلام فيهم وتبكيتهم كما قال تعالى (أولئك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) صدق الله العظيم وإلى هنا قد انتهينا إلى جواز التكلم فى المارق للفارق المجاهر وحسبنا قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم فى الحديث المروى عند الأئمة واللفظ لمسلم (اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس) الحديث وحسبنا أن الله تعالى سمى الكافر كافرا وللمؤمن مؤمنا وأما ما ورد مما ظاهره خلاف ذلك مما ظنه جهلة الناس بأنه لا يجوز التكلم مطلقا فهو من الجهالة بالكتاب والسنة بمكان ويذكرون الأحاديث والآيات التى لا يعلقون لها معنى ويستدلون بها كقوله تعالى (ولا يغتب بعضكم بعضا) وكقوله صلى الله تعالى عليه وسلم (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده) الحديث وغير ذلك كثير مما نبينه أن شاء الله تعالى مع عدم معارضة الآيات والأحاديث بعضها بعضا . وأما ما ذكره الأفاضـــل من جواز الغيبة لمعرف وباقى الشروط الخمس لا غير فهو مأخوذ من الكتاب والسنة كما نبهنا عليه سابقا وسيأتى بيان كل إن شاء الله تعالى وقد عرفت هنا أن الغيبة جائزة فى المجاهرين بالخروج على الدين بنص الكتاب والسنة وأنهم ليس لهم من الإسلام إلا ما عصمهم به الاسلام وفى الحقيقة أنهم يريدون الطعن فى الاسلام ويكذبون القرآن وينسبون التقصير لسيد المرسلين فى البيان اضلالا منهم عن الحق وزيغا منهم عن الطريق المستقيم جعلوا الدين ستارا والدعوة باسمه شعارا لنيل أغراضهم

الشخصية فالكاشف لستارهم الممزق لشعارهم المجاهر ببيان اضلالهم الرامى بها فى وجوههم لاشك أنه مأجور من الله تعالى بنص الكتاب والسنة واليك البيان والله المستعان .

ويتلخص مما تقدم أن الكلام فى الناس على قسمين . قدح ومدح ولا ثالث لهما ، كما هى سنة الله تعالى فى خلقه وفى المثل « لكل إنسان قادح ومادح » وقد جرت العادة أن المادح لا يمدح شخصا إلا إذا كان فى فى مقابل ما ظهر منه مما يمتدح به وعليه مادة على حسب مدارك المادح وشعوره ومبادئه سواء كان من قبيل الاحسان اليه أو إلى غيره ويحبه المادح أو فيه الاستعداد لقبول ذلك قال تعالى (الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب) أى إلى المجتبي والمنيب . من جعل الله فيه الاستعداد القبول المجتبيء ·

وأما القدح فيكون على نقيض ذلك على خط مستقيم ، بمعنى أنه لا يرغب ذلك ولا يميل اليه وليس فيه الاستعداد لكل ما ذكر فيكون على مبادىء من قال تعالى فيهم (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين) فهكذا سنته تبارك وتعالى فى خلقه وبمقتضى حكمته العالية جعل للخير أهلا ودعاة حولهم ، وللشر أهلا ودعاة حولهم .

وهناك معهم أفراد جهلة لا يعرفون بين الخير والشر ، يتناولون الناس بألسنتهم بدون علم ولا معرفة وهم ما جاء فيهم الوعيد فى بيانه صلى الله عليه وسلم « وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصـــائد ألسنتهم » وفى الحديث أن موسى عليه السلام قال . (يارب امنع عنى ألسنة الناس) فقال) ياموسى هذا شيء لم أختره لنفسى فكيف أختاره لأحد من عبادى) وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى « يشتمنى ابن آدم وما ينبغى

له إن يشتمني ؛ ويكذبني وما ينبغي له أما شتمه فقوله أن لي ولدا ؟ أما تكذيبه فقوله ليس يعيدني كما بدأني » فهكذا حال من يجهل ويتخبط في الأمور خبط عشواء .

أما أهل العلم والمعرفة فإنهم يبحثون عن الحق ويعرفونه ويتلمسون طرائقه أين هي ؟ فإذا ماوجدوها التزموا أهلها وركنوا إلى جانبهم فيكونون قد عملوا بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه «أعرف الحق تعرف أهله » فالحق لا يعرف بالرجال بل يعرف الرجال بالحق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الفصل السابع

في حكمة وجود الهدى والضلال والمعارضات بين الأفراد والجماعات ما بقيت الدنيا إلى أن تقوم الساعة

لا يخفى على من له أدنى نظر وأقل تأمل في آي الكتاب الحكيم والسنة المطهرة — أن مبدع الكائنات عز وجل جعل الموجودات على حالتين بمقتضى كماله ولا نطيل هنا لأنا سنوضحه عند بيان أول حقيقة أوجد الله منها وبها جميع الحقائق بعد باب معرفته عز وجل . ولنذكر بصدد ما نحن فيه قول الله تعالى — (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون)

ولا يخفى أنه تعالى حين لفت نظر ابليس عليه اللعنة إلى عظيم قدرته وبديع صنعته وأنه المنفرد بالجمع بين الضدين بقوله تعالى (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) إذ اللعين نظر إلى ظاهر الصورة التي رأى تطوراتها وعمي عن أنه تعالى على كل شيء قدير فقال ، لما يريد ، وفيم أن السجود للصورة سجود لغير الله ؟! ولا ينبغي السجود إلا له تعالى ، وهكذا كل من ينشأ على مبدأ اللعين لا ينظر إلا إلى ظاهر الصور وينسى

آثار صفات الحق عز وجل وهى الآيات الكونية ولكن الكريم الحليم لم يتركه همل بل لفت نظره إلى حكمة تكوينه للموجودات وخاصة أنه لم يوجد من أهل الخطاب وقتئذ إلا ابليس والملائكة وذلك هو التكوين الثانى . إذ خلق جلت قدرته بصفة الرحمة عالم الملائكة من النور . وخلق بصفة الغضب عالم الجان من النار .

وأبان جل شأنه لذلك المنكر صلاحية قدرته جل وعز للجمع بين الضددين بالايجاد بصفة الرحمة والغضب فى صورة واحدة فقال عز من قائل (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى) أى بصفتى أى صفة الرحمة وصفة الغضب على ما قرره المحققون . ولا يعقل إلا هذا المعنى لأنه جل وعلا منزه عن مشابهة الحوادث ، ولأنه عليه اللعنة لم يكفر لعدم السجود فحسب بل جحد آثار صفات الحق عز وجل فامتنع عن السجود ، لأنا لو قلنا أنه كفر لعدم السجود فقط لحكمنا أيضا على آدم بذلك لأن صيغة الطلب للاثنين واحدة . الأول قال له افعل والثانى عليه الصلاة والسلام . قال له لا تفعل وهناك فرق بين الأمرين . أما الأول فلأنه نظر إلى الظاهر فقط وهى مراعاة الصور المحسوسة مع احضار القوة الفكرية فكان رده رد متأمل عارف عالم بحقيقة ما هو مأمور به . ولكنه جحد آثار صفات الحق وأنكر عليه بقوله (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) . وأما الثانى عليه السلام فأقبل على ضد الطلب بدون علم ولا اختيار ولاتفكر فيما أقدم عليه لسبق المقدور عليه فكان ذلك منه نسيانا .

ولعله قد ظهر لك الفرق بين الأمرين . ومن هنا يظهر لك أن كل منكر لآيات الله فى خلقه منكر لآثار صفاته جل شأنه ومن ذلك تعلم أن كل من خرج على الإجماع والسنة والكتاب جعل نظرته لأولياء الله الصالحين

من عباده كنظرة إبليس لآدم عليه السلام إذ يتصور أعمى البصيرة أن هؤلاء الأولياء لهم أفعال غير أفعال الله تعالى ، فمن قصدهم فقد قصد غير الله فيكون عنده مشركا ولا يدرى الجهول بأن هذا الولى مظهر من مظاهر آثار صفات الحق عز وجل وأن الفاعل فى كل شىء هو الله تعالى إذ شاء جل ذكره إكرام الطالب وللطلوب فعل ، وقد شاء حقا وفعل لأن الكرامة من خصائص الولى ولا يعرف إلا بها كما أن المعجزة من خصائص النبي ولا يعرف إلا بها وهى المرادة فى قوله تعالى (وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) — والكرامة آية من آيات الله تعالى التى يجريها على يد عبده الصالح كذا — وهل يدرى المنكر من الذى خلق الولى ؟

ومن الذى خصه بالكرامة ورفع ذكره بها ومن الذى يوجدها ويجريها له ، ومن الذى وجه من فيه حسن العقيدة بإكرام الله تعالى لهذا العبد الصالح حتى يتوجه إليه ؟ أليس الله هو الفاعل فى كل شىء وأن الولى مورد من موارد رحمة الحق عز وجل وبه وفيه وعنده تظهر آيات الله تعالى فى خلقه لخلقه كما جعل جل شأنه لكل شىء مصدرا وقال تعالى (وأتوا البيوت من أبوابها) - (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) - أليس العالم مصدرا من مصادره تعالى ؟ وأليس الصانع مصدرا ؟ وأليس الكبريت مصدرا ؟ وأليس كل ما فى أفراد الجماد والنبات والحيوان مصدرا ؟ وهل لو توجه أحد إلى شىء من ذلك يكون مشركا ؟ ولو أنكرها وجحدها يكون مؤمنا ؟ وكيف هذا مع قوله جل ذكره (واسألوا الله من فضله) قال : العلامة . البيضاوى . فى تفسيره أى مما قربه اليكم وجعله بين أيديكم اهـ أى من كل شىء فى الأفعال والأقوال والاعتقاد لأن الله هو الفاعل فى كل شىء . وسنوفى المقام إن شاء الله فى حمله عند

ذكر الولى والكرامة وحياة الموجوادت وخاصة الآدمى ثم نرجع فنقول :

إن الله سبحانه وتعالى جمع بين الضددين فى مخلوق واحد وهو الذى بث منه خلقا كثيرا — وفى كل فرد من أفراد المخلوق قد بث فيه كذلك والجمع بين الضددين كالعلم والجهل . والحلم والغضب والقوة والضعف ، والإحسان والاساءة والكرام والبخل وهكذا .

ولا يخفى عليك أيضا أنه قد جعل منه المؤمن والكافر والشقى والسعيد. والكل متناسل من آدم عليه السلام فسلسة السعداء لاتنقطع أبدا بين الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من العلماء العاملين والأولياء والصالحين وعامة المؤمنين. وكل من هو إلى الإيمان أقرب وبين الأشقياء من المنافقين الذين هم فى الدرك الأسفل من النار إلى من هو أقرب منهم إلى الإيمان إلى الطبيعيين الذين يقولون بعدم وجود الإله وما بينهم من المشركين. والكفار ومن يزعم أن مع الله إلها آخر . وهؤلاء هم أعوان إبليس وجنوده فى الأرض ، ليتحقق لك قوله تعالى :

(ومن كل شىء خلقنازوجين) وإن هذا الفريق هوفريق الشروالضلال والالحاد والغفلة عن الحق وأهله قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) يقابل هذا قوله تعالى (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) وكذا المجازاة على الأعمال فلأهل الشر قال تعالى فى الجزاء على السيئة (فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ولنجزينهم أسوأ الذى كانوايعملون ذلك جزاء أعداد الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون) — ولأهل الخير قال تعالى فى الجزاء على الحسنة — (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى

وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون) — فقد بان لك أن الموجودات من بنى آدم على حالتين كما قررنا فأهل الضلال موجودون إلى أن تقـوم الساعة . وأهل الحق موجودون كذلك . والكل سلالة آبائهم وأجدادهم وماهم عليه فى العقيدة والأعمال والجزاء ولا يزالون كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وكلما دعا أهل الضلال إلى الضلالة فأهل الحق يقومون فى وجههم ويردونهم عن طغيانهم لقوله صلى الله عليه وسلم « لا تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » وهكذا جميع الأعمال على حالتين والجزاء عليهما كذلك وحالتهما فى الدنيا ومآلهما فى الآخرة كذلك فريق فى الجنة وفريق فى السعير . (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها) . (وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها) .

واليك أجمع آية فى كتاب الله العزيز (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

ولنرجع إلى بدء التشريع فى وقت تأسيسه على يد خير الأنبياء والمرسلين . صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين من جعل الله تعالى شرعه باقيا إلى يوم الدين وأن مرحلته لم تنقطع ولا تزال قائمة أبد الآبدين وقد جعل الله تعالى جميع الأنبيا والمرسلين نوابا عن حضرته صلى الله عليه وسلم فى البلاغ لجميع الأنس والجن — قال تعالى (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم اصرى . قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولى بعد ذلك فأؤلئك هم الفاسقون) . ومع هذا كان يعارض ويقاوم

ويعادى بكافة الطرق الشيطانيـــة المخالفة لدعوته الشريفة . فمنهم من آمن ومنهم من كفر وطالما تمنى صلى الله عليه وسلم أن يؤمن به الخلق أجمعون حتى لا يفلت منهم أحد إلى النار وكان حريصا على ذلك كل الحرص فسلاه الحق عز وجل وأساه باخوانه الأنبياء والمرسلين من قبل بقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم) .

هذا ولا يخفى عليك أن الله تعالى كما جعل للخير دعاة اليه من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم جعل للشر دعاة اليه من ابليس وأتباعه . من لدن آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة — فالشيطان وأتباعه ضـد دعوة الأنبياء والمرسلين والعلماء العاملين والأتقياء و الصالحين بنص كتاب رب العالمين .

قال تعالى (إن الشيطان لـكم عدو فاتخذوه عدا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات أن الله عليم بما يصنعون) — وقال تعالى —(استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أؤلئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون) — (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا أن حزب الله هم المفلحون) .

فقد عرفت أن بنى آدم على حالتين قولا وفعلا وعقيدة كما تقدم لحزب الله هم الأنبياء والمرسلون ومن على قدمهم من الخلق للمهتدين وحزب الشيطان وأوليائه وجنوده هم من الخلق الضالين . ولا تنس أن إبليس سيتبرأ من حزبه يوم القيامة بعد اعترافه بأنه كان فى الدنيا داعية للشر قال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) .

ففى مثل هذه الآية وما يشاكلها واضح الدلالة على أن إبليس هو مصدر الشر وبه يعمل وإليه يدعو وعلى ما قدمنا من أن سلالة الأطهار من الأصل الطاهر لحفظ الله تعالى لهم أصلا وفرعا قال تعالى (أن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) وإن سلالة الأشرار هم من أصل الشر فنه خلقوا وبه يعملون وإليه يدعون قال تعالى (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت) وقال تعالى (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا) — وقال تعالى — (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) .

فقد ظهر لك أن فرق الضلال والكفر والإشراك ذرية بعضها من بعض وأهل الإيمان والتقوى والصلاح والاستقامة ذرية بعضها من بعض .

« ملاحظة »

لعلك عرفت مما قدمنا أن جانب الخير من الخلق هم سلالة الأطهار من لدن آدم إلى وقتنا هذا بل إلى أن تقوم الساعة وأنهم هم أهل التقوى

وأهل الكرم والسماحة والخير والبركة وقد جعلهم الله تعالى الوسائل في كل هذا وخلقهم لهذا ولهذا يعملون وبه وفيه ينتجون وبهم ومنهم وفيهم تظهر آثار صفات الحق عز وجل في الخير والهدى . وأن جانب الشر من الخلق هم سلالة الأشرار من لدن آدم إلى وقتنا هذا ، بل إلى أن تقوم الساعة وهم على عكس سلالة الأطهار على خط مستقيم ، كما نطق به صريح الآيات في الكتاب الحكيم ، وصحيح السنة . فأصبح ذلك التسلسل في الجانبين قاعدة الهية ، وسنة ربانية ، من سنن التكوين ، (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) . وأخرج أصحاب الصحاح عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » أي فطرة الله على التوحيد والملة السليمة .

وعلى هذا الأصل تكون نسبة الفرق والطوائف والنحل إلى أصولها التي انحدرت منها في كل عصر وجيل كما هو مشاهد بالحس والعيان ، فليس ذلك بتأثير الطبع ولا اقتضاء للمعادن ولا بتولد المسببات من أسبابها بل بالوضع الإلهي القائم على محض المشيئة . والاختيار (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة) الآية : فبان لك أن ربك هو الفعال لما يريد وله الحكم في التغيير والتنويع ، لا سلطان لعادة ولا قهر لطبيعة (وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) فسبحانه يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي فقد يخرج من الصالح طالحا ومن الفاسد صالحا قال تعالى لابراهيم عليه السلام (إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لاينال عهدي الظالمين) ومن المؤمن كافرا كنوح وابنه . وقد يخرج من الكافر موحدا عارفا كآزار وابنه إبراهيم عليه

الصلاة والسلام — وذلك لبيان اقتداره على الإبداع والاختراع ولإظهار كمال علمه بمكوناته سواء كان من عقبة مباشرة أو من سلالة ولو عن بعد كما قال تعالى — (وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشيا أن يرهقهما طغيانا وكفرا) — وكما قال تعالى - (وكان أبوهما صالحا) وهو الجد السابع أو العاشر كما قرره المحققون ولا نذهب بك بعيداً فها كم ابن تيمية لجده الخامس المحدث العظيم صاحب منتقى الأخبار وابن عبد الوهاب أبوه العالم العظيم الصالح الذى حاول هو وأخوه ردعه ورده عن نشر الضلالة فلم يستطيعا . لحكم يعلمها الحكيم العليم بخلقه وهذا لايقدح فى أن الطريق الواضح والجارى كثيراً فى العادة المألوفة والسنة الجارية أن الضال لا يلد إلا ضالا بل قد يكون أعرق من أبيه فى الشر وإليك قول من قال موريا عن كان أخبث من أبيه :

كان فى الحارة كلب   أقلق النـــاس عواه
خلف الملعون جـراو   فاق فى الخبث أبـاه

وهاك أصل المثل العربى : قال حنظلة يحاور ابنه مرة يارب ترزق الناس أولادا حسانا وأنا ترزقنى شيطانا . فقال مرة لأبيه : أما تعلم أن من العصى العصية والحية لاتلد إلا حوية فأرسلت مثلا .

فمن هنا تعرف أن أهل الضلال يرثون الضلالة خبيثا عن خبيث وضالا عن ضال .

ولكن قد يكون فى نسب الأطهار دخل يضاد ذلك كما قال تعالى لسيدنا إبراهيم (قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) وقال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون) يرشد تعالى عباده إلى أن الطبيعة والعادة

لا تأثير لها على الفاعل المختار فقد ينشىء جل وعلا من الصالح فاسدا ومن الفاسد صالحا — وقد يكون غير ذلك كتكوين عيسى عليه السلام .

عن ماء مريم أم عن نفخ جبرين
سواه كالبشر المخلوق من طين

هذا وإن كنت ترى فى المكونات على خلاف العادة والطبيعة كمن لا يلد وقد يكون الرجل والمرأة بصحة جيدة .

وأما ما به العادة والطبيعة فى المولدات الثلاث من الحيوان والنبات والجماد فلا تلد هذه الأجناس إلا جنسها — سنة الله تعالى فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا — ولقد أحسن من قال :

وهل تلد الأشيـــاء إلا شكلها
أو تحمل الأشجار غير حملها
لو قيل شـــاة ولدت إنسانا
أو حب بر مثمر جلبانا
أو نخـــلة قد حملت رمانا
أو طائر قد أفرخ الحيتانا
لقيل هذا من المحـال

قال تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض) .

وقال صلى الله تعالى عليه وسلم لكريمته السيدة فاطمة الزهراء (ما أحسن شيء للمرأة يا فاطمة ؟ فقالت : أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل . فربت عليها وقال : ذرية بعضها من بعض) .

ولا غرابة فى أن أهل الشر هم من نسل أهل الشر وأهل الخير

والتوفيق هم من نسل أهل الخير والتوفيق وهذا مستفاد من وضع القرآن الكريم وبيان سنة سيد المرسلين من أن القرآن لم يخرج عن دائرة ثلاث : (١) الدعوة إلى الله تعالى وهو التوحيد (٢) والمعاملة مع الله تعالى ومع خلقه بما أرشد عباده اليه وحثهم على النظر فيه والجد والاستقامة فى الطريق الموصلة اليه تعالى وحذر من كل ماهو بخلاف ذلك (٣) والقصص وهو عظة الحاضرين بأحوال الماضين .

هذا مااشتمل عليه القرآن الكريم وبيان السنة المطهرة فاذا نظرت وتأملت وجدت أن كل قسم منها يشتمل على حالتين الأمر بالتوحيد والتحذير من ضده والأمر بحسن المعاملة والتحذير من ضده والقصص بالأمر فيه باتباع سنن من وفقهم الله والتحذير من ضده .

وهاهو القرآن الكريم الذى أنزله الموجد للعاملين به ولغير العاملين به ولما كان لا نبى بعد رسوله محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ولا كتاب بعد القرآن جعله صالحا موافقا لجميع من يوجد من بنى الانسان إلى أن تقوم الساعه . وبين لهم فيه جميع أحكام ما يستحدثونه فى تجددات أزمانهم وبين لهم فيه الأحكام العامة والخاصه بل قد جعل فيه ما يشمل كل شيء من نوعه كما قال تعالى (فاسألوا أهل الذكر أن كنتم لاتعلمون) . وقال تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) — (ويخلق ما لاتعلمون) — (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) - وغير ذلك كثير فى كل شيء بحسبه ونوعه . وكفانا قوله تعالى (تبيانا لكل شيء) — (وتفصيل كل شيء) — (مافرطنا فى الكتاب من شيء) -على ماسنبينه إن شاء الله فيما يأتى فى محله .

ولا يخفى عليك أنه مامن حادثة تحدث فى مستقبل الزمان إلا وقد أجرى الله تعالى فى بنى الانسان فى زمن حضرته صلى الله عليه وسلم

ما يشابهها لينزل فى شأنها قرآنا صالحا لكل ماهو على شاكلتها ليكون أصلا يرجع اليه مابقيت الدنيا ويصبح الرد اليها متعينا وكذلك بيان السنة وقد وفق الله تعالى من عاصروا رسوله صلى الله عليه وسلم أو من عاصروا من عاصر رسوله صلى الله عليه وسلم إلى بيان ذلك وهم المعنيون فى قوله تعالى (وألوا الأمر منهم) فالمنزل جل شأنه والمبين صلى الله عليه وسلم ومن وفقهم الله لفهم ذلك ومن اتبعهم إلى أبد الآبدين هم أهل الهداية والتوفيق ومن خالفهم دهر الداهرين فهم أهل الضلالة والتفريق .

ومن هنا أيضا تعرف أن القرآن الكريم ما أنزل إلا بأسباب قد أجراها خالق الموجودات ليبنى عليها ويرجع اليها ما دامت الأرض والسموات فما نزل لأهل الهداية فهو لأهل الهداية ومن على مبادئهم وما نزل لأهل الشقاوة فهو لأهل الشقاوة ومن على مبادئهم وعلى هذا قالوا إن السنة والقرآن يؤخذ منهما بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

فمثلا قوله تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالأثم) الآية نزلت لسبب خاص ولكن الحكم عام مستمد إلى يوم القيامة فى كل ما أشبه سبب النزول .

وليس من هذا قول أهل الزيغ والخوارج ومن على مبادئهم بأن ما نزل بشأن من جعلوا مع الله الها آخر من عبدة الملائكة والجن والكواكب والأصنام ينطبق على زوار الأنبياء والأولياء والصالحين فهذا قول فاسد ورأى باطل لأن الفرق كبير بين العبادة والزيارة إذ طوائف الكفر والاشراك كانوا يعبدون هؤلاء على مختلف عقائدهم فيهم وعبادتهم لهم على ما بين فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة . وأما الزائر فانه لا يرجو إلا الخير والبركة ممن أظهر الله فيهم آثار صفاته المغايرة للعادة البشرية . فاتجاه الزائر إنما هو لله تعالى وصفاته على مابين فى الكتاب العزيز

والسنة المطهرة . وأما إنهم يخلطون فى كلام الله تعالى ويحرفون الكلم عن مواضعه ويريدون أن يبدلوا كلام الله ويقولون فيما نزل فى بيان المشركين وحال الخوارج والضالين ويجعلونه فى شأن الزائرين فهذا من الالحاد بمكان. لأنه كيف يتفق الشرك مع قوله تعالى — (كنتم خير أمة أخرجت للناس). مع قوله صلى الله عليه وسلم . (والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى) ـ رواه البخارى فى الجنائز — وقوله : (لاتجتمع أمتى على الضلالة) ـ رواه أحمد فى مسنده والطبرانى .

فهؤلاء الخوارج يرمون البرآء من المؤمنين بالشرك وهم لايعرفون أى معنى للشرك بل هم إلى الشرك أقرب ولو رأيت حالهم مع من يعدونهم بالمال لحكمت عليهم أنهم هم المشركون حقا لأنهم يعملون لمناقصة صريح الآى القرآنية والسنة النبوية واجماع خيار الأمة فى مقابل عرض زائل يأكلون منه كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ولا يبالون بمعارضة كل ذلك فانظر أى الفريقين أقرب إلى الشرك تراهم أحيانا يأخذون بظاهر القرآن وأحيانا يؤولونه على حسب ما يسول لهم الشيطان (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وأنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) فهم يتلونون بلون المقامات كأسلافهم المارقين .

هذا وإنا نرجع بك إلى ما قدمنا من أن القرآن الكريم بين حال المؤمنين الكافرين والوسط بينهم من المنافقين . والمنافقون على قسمين قسم منهم إلى الكفر أقرب وهم من قال تعالى فيهم — (ان المنافقين فى الدرك الأسفل من النار) ـ وقسم منهم إلى الإيمان أقرب وهم : من قال تعالى فيهم — (ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم) .

وقد قدمنا أن الأصل فيمن نزل بسببهم القرآن على قسمين مؤمن وكافر ومن علي شاكلته الكفار كأهل الزيغ والضلال والالحاد والمارقين والخوارج وجميع أهل الفرق الضالة ممن بينا وسنبين . وقال تعالى — (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) ـ وقال تعالى (والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن أن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون) (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن يروا كل آية لا يؤمنون بها) — (إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا) — (ومنهم من يستمع اليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم)

فالمتبادر من هذه الآيات القرآنية الصالحة لكل زمان . النازلة بالأسباب أنها شاملة لجميع فرق الزيغ والضلال وأهل الأهواء من الخوارج وغيرهم على ما حققه وخرجه كبار أئمة التفسير . راجع تفسير الفخر والقرطبى وغيرهما . وأنهم لا يزالون كذلك وقد جاء فى السنة المطهرة مابين ذلك وهاهو ما رواه أبو داود فى سننه من حديث معاوية ابن أبى سفيان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين ملة وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة وأنه سيخرج من أمتى أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله — قال القرطبى فى تفسيره للقرآن الكريم فى الجزء الرابع عند قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا

ولا تفرقوا) صحيفة ١٦٠ بعد الحديث المستدل به السالف الذكر — فقد ظهر لنا أن أصول الفرق هي الحرورية — والقدرية — والجهمية — والمرجئة — والرافضة والجبرية — وقال بعض أهل العلم أصل الفرق الضالة هذه الفرق الست — وقد انقسمت كل فرقة منها إلى اثنتى عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة وقد بينها فرقة فرقة إلى آخرها اه قرطبي .

الفصل الثامن

في المناظرة وحكمتها

إعلم أن أقوى المعلومات مطلقا ما كان عن نظر واستدلال ضرورة أن لا تصديق إلا بعد تصور ، ولما كان الأمر كذلك ، لفت الله نظر عباده إلى هذا ، إذ وردت المناظرة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وأولها ما كان بين الله وملائكته عليهم السلام في شأن آدم عليه السلام بها ألزم الله تعالى ملائكته عليهم الحجة لما قال تعالى :

(إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) كان مرادهم أن خلق مثل هذا المخلوق في نظرهم غير ظاهر الحكمة لهم ، ولما كان الحكيم الخبير لا يفعل شيئا بلا حكمة ، أجابهم سبحانه وتعالى بقوله (إني أعلم ما لا تعلمون) .

أى إني لما كنت عالما بكل المعلومات ، قد علمت أن في خلق آدم وتكوينه حكمة لا تعلمونها أنتم ولا شك أن هذا هو المناظرة .

وأعلم أن منشأها طلب الوقوف على الحكمة لا مطلق الجدل إذ هم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون — هذا .

وأما ما كان من اللعين مع الله تعالى فكان محاورة وجدالا بغير حق وقد أظهر الله تعالى بها حجته على الملائكة ، وأبان فضل آدم عليه السلام عليهم بأن أظهر علمه وجعله معلما لهم فلم يسعهم إلا أن يقولوا (سبحانك لا علم لنا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) وذلك محض الاستدلال ، ومع نوح عليه السلام قد حكى الله تعالى عن الكفار قولهم (يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا) ومعلوم أن تلك المجادلة ما كانت فى تفاصيل الأحكام الشرعية بل كانت فى التوحيد والنبوة — فالمجادلة فى نصرة الحق فى هذا العلم هى حرفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام — وإبراهيم عليه الصلاة والسلام مع نفسه فى قوله تعالى (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين) وهذا هو الاستدلال بالتغير على الحدوث — ثم إن الله تعالى قد امتدح ما كان عن نظر واستدلال ونسبه لنفسه تعالى فقال جل شأنه (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه) ومع أبيه بقوله (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا) ومع قومه تارة بالقول — وأخرى بالفعل — ومع ملك زمانه (إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين) وبحث إبراهيم هذا — فى المبدأ — والنبوة والمعاد — لتعلم من هذا أن الأول قبل كل شيء إقامة البرهان على توحيد الله تعالى ووجوب معرفته وهو أول واجب على كل مكلف — والثانى إقامة البرهان على التوحيد مع النبوة — والثالث منهم عليهم الصلاة والسلام إقامة البرهان على التوحيد والنبوة والمعاد — وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين نهجوا منهجا واحدا فى هذه الثلاث لا غير وهى المقصودة من الحياتين الدنيا والآخرة — فهذا ينبهك

على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة هؤلاء المعصومين وأنهم كما استفادوها من عقولهم قد توارثوها عن أسلافهم الطاهرين هذا .

وقد عرفت أن إقامة البراهين فى وجه للمعارضين ما كانت إلا فى ثلاثة شبه التى هى أول شبه اللعين قد تشعب منها السبع الشبه — آنفة الذكر وأما سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فما بعث إلا وكل فساد فى الأرض قد بلغ منتهاه وتشعبت أنواع الضلال فى الالهيات والنبوآت والمعاد ، فكان اشتغاله بالدلائل على التوحيد — والنبوة والمعاد بدرجة من الوضوح لا يحتاج معها إلى التطويل ، والقرآن مملوء بذلك .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام مبتلى بجميع الكفار - الدهرية الذين يقولون — (وما يهلكنا إلا الدهر) وقد أبطل الله تعالى قولهم بأنواع الدلائل — والذين ينكرون القادر المختار والله تعالى أبطل قولهم بحدوث أنواع النبات والجماد والحيوان مع اشتراك الكل فى الطبائع وتأثيرات الأفلاك وذلك يدل على وجود القادر المختار — والذين أثبتوا مع الله تعالى شريكا وذلك الشريك إما علوى أو سفلى — أما الشريك العلوى فمثل من جعل الكواكب مؤثرة والله تعالى أبطله بدليل الخليل — (فلما جن عليه الليل) . وأما الشريك السفلى فمثل النصار : قالوا : بإلهية عيسى عليه السلام — واليهود : قالوا : بإلهية عزير عليه السلام — وعبدة الأوثان قالوا بالهية : الأوثان — والله تعالى أكثر من الدلائل على فساد قولهم :

والذين طعنوا فى النبوة على قسمين — قسم منهم طعن فى أصل النبوة وهم الذين حكى الله تعالى عنهم قوله (أبعث الله بشرا رسولا) والثانى الذين سلموا أصل النبوة وطعنوا فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والقرآن مملوء بالرد عليهم .

والذين طعنوا فى الحشر والنشر والله تعالى أورد على صحة ذلك وعلى إبطال قول المنكرين أنواعا كثيرة من الدلائل مثل قوله تعالى (يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم) الآية . والذين طعنوا فى التكليف تارة بأنه لا فائدة فيه - وتارة بأن الحق هو الجبر .

وقد رد الله تعالى عليهم فى ذلك بأنواع الدلائل فقد تلخص لك من هنا ومن جميع ما تقدم معرفة أصول المعاندين الماضين بأن هؤلاء على قسمين — أهل ديانات مطلقا مثل المجوس — واليهود — والنصارى — والمسلمين — وأهل الأهواء والآراء — مثل الفلاسفة والدهرية والصائبة وعبدة الكواكب والأوثان والبراهمة وهؤلاء لا تنضبط لهم فرق فى عدد معلوم — وأما أهل الديانات فقد انحصرت مذاهبهم بحكم الخبر الوارد فيها (فقد افترقت المجوس إلى سبعين فرقة واليهود إلى إحدى وسبعين فرقة — والنصارى على اثنتين وسبعين فرقة — والمسلمون على ثلاث وسبعين فرقةوالناجية أبدا فى الفرق واحدة — إذ الحق من القضيتين المتقابلتين فى واحدة ولا يجوز أن يكون قضيتان متناقضتان متقابلتان على شرائط التقابل إلا وأن تقتسما الصدق والكذب فيكون الحق فى إحداهما دون الأخرى — ومن المحال الحكم على المتخاصمين المتضادين فى أصول المعقولات بأنهما محقان صادقان .

وإذا كان الحق فى كل مسألة عقلية واحدا فالحق فى جميع المسائل يجب أن يكون مع فرقة واحدة — وإنما عرفنا هذا بالسمع وعنه أخبر التنزيل فى قوله عز وجل (وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) .

وأخبر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم (ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة الناجية منها واحدة والباقون هلكى) قيل من الناجية — قال أهل السنة والجماعة — قيل ومن أهل السنة والجماعة — قال ما أنا

عليه اليوم وأصحابى وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة) وقال صلى الله تعالى عليه وسلم (لا تجتمع أمتى على الضلالة) هذا وقد أفرد كثير من أجلة العلماء كتباً بين فيها الفرق بكافة أنواعها بأحسن تبيان — كالفرق بين الفرق — والفصل — والملل والنحل – وغيرها من الكتب فراجع إن شئت .

هذا وبحوله وقوته تعالى — سأبين لك من هو الذى على الحق فى الأمة الإسلامية وبه تعرف بالصرورة غيرها من جميع الفرق إذ هى التى ينتهى إليها خيرية جميع الأمم إذ قال مبدع الكائنات خالق الأرضين والسموات ومن فيهن ومن عليهن فى كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد – الذى ما فرط فيه من شىء قال سبحانه وتعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقال الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (أنتم خير الأمم يوم القيامة) ومن هم خير الخيار — ومن هم الآن الذين هم ما كان عليه صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله تعالى عنهم وهم الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه المجيد الذى أنزله تبياناً لكل شىء وتفصيلا لكل شىء .

وإنى لا أدعك حيران فى بيان الفرقة الناجية التى هى على الحق إذ الكل يدعيها ولا برهان لهم تثبت به حقيقة دعواهم وإن لم يكن فى هذا الكتاب إلا هذا الباب لكنى ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المبطلون .

وذلك ستراه فيما يأتى من الباب الثانى فى تفصيل الرد عليهم فى معرفة الحق عز وجل بالقدر الممكن للبشر كما شرعه تعالى على لسان الأنبياء والمراسلين وخاصة سيد العالمين عليهم الصلاة والسلام أجمعين وما يليه من الأبواب إن شاء الله تعالى .

الفصل التاسع

فى أن الفرع كالأصل

قد عرفت مما قدمنا لك أن ابن تيمية هو الذى جمــم شتات أقوال الخوارج وغيرهم من الملحدين ودونها وسائل وتلقاها عنه تلاميذه الذين فتنوا بحبه لنشأتهم على ذلك واستعدادهم له ووسعوا فيها الضلالات وكلما رأوا المسلمين يعملون عملا من الأعمال التى لم تكن فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم خالفوا هم اجماع المسلمين وقالوا ببدعتها آخذين بأقوال هؤلاء الضالين عامدين إلى استدلالات واهية لا أصل لها من الكتاب والسنة موهين على البسطاء بأنها معقولة وبأنها صريح الكتاب والسنة . وتلك الاستدلالات تجعل الكتاب والسنة يتعارضان ولا مبالاة لهم بذلك ولم يفهموا أن منزل الكتاب ومرسل البشير النذير وخالق من يعملون بذلك ومبدع المستحدثات ما بقيت الدنيا وأمر بالعمل بهما إنما هو إله واحد عالم بكل ذلك جعل كتابه وسنة نبيه صالحين لكل زمان وقد قيض من عباده رجالا ذكرهم فى كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم وأمر باتباعهم وعصمهم من الخطأ وحفظهم من الزلل فى كل ما بينوه لعباده وأثنى عليهم من محكم كتابه وبين أوصافهم صلى الله تعالى عليه وسلم كما بين أوصاف المارقين والملحدين وحذرنا من إتباعهم .

ومن العجيب أنك ترى المبطلين لقصر عقولهم وطمس بصائرهم عن إدراك ذلك كله يقولون فى كل المستحدثات التى وفق الله تعالى لها رجالا قاموا فيها بالبيان والارشاد مما لم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم إنه بدعة . ويا ليتهم يعطونها حق البدعة الحسنة بل لتوغلهم فى مبهمات الضلال يقولون أن جميع البدع ضلالات .

فانظر يا أخى إلى أنهم لانطباق جهلهم يحرفون الكلم عن مواضعه ويا ليتهم فيما يجهلون يسألون أهل الذكر امتثالا لقول ربهم جل وعز بل يعتقدون أنهم أكبر وأوسع علماً من أئمة الدين . يقولون أن هذه الأشياء التى لم تكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم بدعة وضلالة وإذا قلنا أن كل ما لم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم بدعة . لزم أن تكون أحوال الناس ومخترعاتهم بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار على ما يزعمون .

هذه نبذة من أفكارهم العالية التى ترتفع على أفكار البهائم . وإن قالوا أن مرادنا من البدع ما فى الأحكام والأعمال الشرعية قلنا لهم لم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم نقط المصحف ولا شكله ولا طبعه ولا قسيمة الزواج ولا علم النحو والصرف واللغة والهندسة والتاريخ والجبر والكيميا والطبيعة والجغرافيا والبلاغة بأقسامها الثلاثة والمنطق والتوحيد والفلسفة الإسلامية والفقه الاسلامى والفلك والهيئة والميقات والعروض والقافية والوضع والرسم وآداب البحث وغيرها من مختلف الفنون والعلوم . إذن فالاشتغال بذلك كله بدعة وضلالة مع أنها وسائل لفهم كلام رب العالمين وسنة سيد المرسلين المشتملان عليها ولا يعقل التفهم فيها إلا بها . ويقولون أيضاً أن الأحكام الشرعية هى ما كانت فى زمن حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لا يجوز القياس فى الدين مستدلين بقوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً) ويقولون لو كان القياس بعده صلى الله تعالى عليه وسلم كان لا بد أن يكون لاظهار حكم لم يكن معلوما فكان القياس موجباً لكمال ما لم يكن كاملا فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم . فنقول لهم أن المراد بأكمال الدين تحقيق قواعد العقائد

وتبيين قواعد الاجتهاد والتوقيت على أصول الشرائع وهذا لا ينافى وقوع الاجتهاد وتخريج الأحكام بعده صلى الله تعالى عليه وسلم على ما فى البيضاوى وبعض حواشيه .

قال : الأمام أبو حنيفة والشافعى أن ما يستحدثه الناس بتوفيق الله لهم فى أزمنتهم لانهاية له. إذن لا بد فى الرجوع فى كل جزئية من مستحدثاتهم إلى أصل كلى فى الدين يندرج تحته ذلك الجزئى وإلا لما صح الرد إليه وإلى بيان الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . وكذا لم يكن لمصداق قوله صلى الله تعالى عليه وسلم أصل « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة » وكيف تكون السنة المستحدثه حسنة إلا ولها أصل فى الدين حتى يؤجر عليها فاعلها فتراهم يقولون بضلالاتهم وأباطيلهم ويؤيدونها بالأدلة من الكتاب والسنة بما لا يعقلون له معنى بل بينه وبين تفهماتهم منافرة تامة لأنها تصطدم مع غيرها من الآيات والأحاديث التى تعارض تفهماتهم ويكون ذلك مدعاة لوجود التضاد فى الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التى قال الله فيها « قرآناً عربياً غير ذى عوج » وفى حقه صلى الله تعالى عليه وسلم « وما ينطق عن الهوى » فالله العالم بموجوداته وما يكونون عليه وما يحدثونه فى أزمنتهم الذى سن لهم القوانين التى يسيرون عليها وتكون فيها المصلحة تامة عامة لهم — لم يوجد فيها التضاد ولا المعارضة بل لا بد أن يكون بين الجميع والمجموع والأفراد والجزئيات فى كل الأمور والأحوال تمام الوفاق حتى يكون ذلك الإيجاد على أتم نظام وأحسن ترتيب .

ونقول لهم أيضاً أن الله الذى بيده ملكوت كل شىء والفعال فى كل شىء جعل أعمال العباد ومستحدثاتهم ومبتكرات أفعالهم لا تخرج عما تضمنه القرآن الكريم حتى إذا ما تنازعوا فى أمر مستحدث يرجعون

فيه إلى القرآن فيجدون أصل الأخذ به وعموم الخطاب يرشد إليه .

وكذا فى بيانه صلى الله تعالى عليه وسلم ويكون أمر عقلاء الأمة فيه بإجماعهم على أن عموم اللفظ يتناوله وأصل الحكم يشمله وأنه سنة حسنة وبدعة يرضى الله تعالى عنها ومن هنا يتعين حسن الرد إلى الكتاب والسنة والإجماع . فانك تراهم بمقتضى تشريع الحكيم العليم وبمقتضى حكمة وجود الضلال مع الهوى مستمرين إلى يوم القيامة على ما قدمنا ينظرون فى الآية والحديث فيجلى لهم الحق واضحاً وأهل الضلال لطمس بصائرهم يفهمون عكس الحق وفهم أهله ويمدهم الشيطان بوحيه وينصرهم بحزبه ويجزم لهم بأن هذا هو الحق وغيرهم على الباطل فيضلون ضلالا بعيداً ويرتبكون ولا يهتدون سبيلا وإذا رمى بها أهل الحق فى وجوههم تراهم يزدادون حيرة وارتباكا ويحاولون التأول فيها بلا جدوى فلا يفلحون وبذلك يتحقق فيهم قول الله تعالى « ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين » .

قال العلامة البيضاوى وما ذاك إلا إشعار بالحدوث والتجدد وتسجيل بأن العلم يكون المثل حقا هو هدى وبيان وبأن الجهل بوجه إيرادى ذلك المثل والإنكار لحسن مورده ضلال وفسوق . فمن هنا تعرف أن الضالين يجهلون المقصود من الآيات والأحاديث فيجعلونها أدلة على أقاويلهم وتزييناً لأباطيلهم وتشجيعاً لمن يضلونهم عن الحق .

هذا وإنى أذكر لك مثلا حتى لا تظن أنى متحايل على الخوارج بدون دليل أو أنى طاعن فيهم بدون برهان فأقول أن من كتاباتهم وتفهماتهم وما هو شائع على ألسنتهم وألسنة تابعيهم أنهم يقولون أنها من القرآن كما فى قولهم فى معنى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) ذكرها

الله فى كتابه العزيز سبع مرات وما هو إلا مستو بمعنى مستقر بذاته على عرشه ولا يحيدون عن هذا المعنى ولم ينظروا إلى الآيات الأخر التى تعارض أفهامهم كقوله تعالى : ان الله لغنى عن العالمين — إذ كيف يكون غنياً وهو محتاج إلى العرش وفى قوله تعالى : ليس كمثله شىء — وكيف هذا والعرش يحمل نوعا من الملائكة وغيرهم فيكون الله معهم على هذا الفهم وكقوله وتعالى : وكبره تكبيراً — أى لانهاية لذلك وأظنهم لا يعلمون أن العرش مخلوق ومحدود وكيف يكون الله فوقه ويكون ذلك المخلوق حاملا له فاذا ضيقت عليهم فى البحث والشرح يقولون لا نعلمه يثبتون وينفون فى آن واحد كمن يقول : إن الرجل فى الدار ولا أعلم ! ! كيف يثبت أنه فى الدار ولا يعلم هكذا يقولون فى كل شىء يعجزون عن الإجابة عنه كقولهم إن لله يداً ورجلا وعيناً وجسما من صفات الحوادث أخذاً من ظاهر الآيات التى جاءت فى القرآن فنقول لهم إن هذه صفات للحق عز وجل كما عليه بيان سيد المرسلين وفهم الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والعلماء العاملين فاذا ضيقت عليهم يقولون هذا صريح كلام رب العالمين وله ذلك ولكن لا نعلمه . ويقولون أيضا فى قوله تعالى - أأمنتم من فى السماء — فيرجعون الضمير المستتر إلى الله تعالى ولا يخافون معارضة الآيات الأخر لقوله تعالى : ليس كمثله شىء — وإن الله غنى عن العالمين — لا يبالون بالخجل والكسوف واصفرار وجوههم عند الزامهم الحجة وذلك ناشىء عن عدم الشعور والإحساس رغبة فى الظهور وارتفاع الشأن ولو بالباطل والحرام .

ولست أدرى على فهمهم السخيف هـــذا أين كان الله قبل خلق السموات والعرش ؟ وإن من أحقر ما ترى من التعبيرات فى قول ابن

تيمية فى حديث النزول أنه تعالى ينزل نزولا حسياً كنزول الحادث من أعلا إلى أسفل كما سيتضح لك فى الرد عليه إن شاء الله تعالى فى هذه المسألة .

وإليك مثلا آخر فى قوله تعالى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) فإنهم يقولون بعدم وصول الثواب من الغير الى الميت ولم يفطنوا إلى قوله تعالى (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا) وهـذا دعاء من غير جنس الآدميين . وأن الله تعالى أخبر عنه أنه يقبل وينفع . وكذا قوله تعالى (والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان) فأخبر الله تعالى أن دعاء اللاحق للسابق مقبول وينفع وإليك تشريعه صلى الله تعالى عليه وسلم من شق الجريدة بصفين ووضع كل نصف على قبر فى الحديث المروى فى الصحيحين وغيرهما (يعذبان وما يعذبان فى كبير) الحديث . وهكذا حالهم فى الضلال ونشأتهم عليه . فلا تجد لهم مبدءاً فى المخالفة إلا وأصله هكذا لا يهتدون فيه إلى الحق ولا إلى طريق مستقيم — ويقولون فى حضرته صلى الله تعالى عليه وسلم أنه بشر مثلنا من كل الوجوه بنص ظاهر الآيات لا يعرفون لخصوصياته الشريفة التى لم يشاركه فيها أحد من الأنبياء والمرسلين سبيلا . ويقولون إن الموت عبارة عن العدم الذى لا حساسية معه ولا إدراك ولا شعور ومن مات فقد انعدم فهم كأنهم لم يقرأوا القرآن فهم من مصداق قول الصادق المصدوق صلى الله تعالى عليه وسلم (يقرأون القرآن لايتجاوز تراقيهم) الحديث . أى لا يصل الى قلوبهم فلا يفهمون معناه مع أن صريح القرآن يقول إن الكافر حى فى قبره وهم يقولون على سيد العالمين مات وانتهى ولا ينفع ولا يحس ولا يعرف

أمته بعد . على ما بينا فى معنى الموت الذى فصله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز تفصيلا وينكرون أيضاً كرامات الأولياء ، ويولون أنها تعارض سنن التكوين جهلا منهم وعمى . مع أن الله عز وجل بين فى كتابه العزيز إكرامه لأوليائه وهم نيام وهم أحياء يمشون على وجه الأرض وهم أموات فى قبورهم لقد صدق رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى بيانه كما سيأتى فى بيان كل محله وينكرون التوسل والوسيلة وهكذا فى جميع الآيات التى نصبها الحق عز وجل دلائل على معرفته وبديع صنعته ولم ينظروا إليها . فهم مندرجون تحت قوله تعالى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) ولهذا يستحقون الوعيد الشديد الذى أوعده الحق عز وجل لمن هو على شاكلتهم فى قوله تعالى (قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فانك إذا نظرت إلى أقوالهم تجدهم لا يؤمنون إلا ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فهم يقرون أمهات الأحكام وينكرون جزئياتها المندرجة تحت تلك الكليات وتعرف هذا من قولهم وفهمهم فى قوله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية . فهم يرون الجزئيات المندرجة تحت تلك الكليات بدعة مع أنها قد جاءت فى بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم ولا يخفى عليك أن جميع شبههم هى شبه إبليس اللعين التى دأب عليه الناس من أهل الضلال من قبلهم من لدن آدم إلى وقتنا هذا بل ويستمر هذا إلى يوم القيامة لحكمة وجود الضلال والهدى مستمرين ما بقيت الدنيا . هذا وبتوفيقه تعالى رددنا عليها واحدة واحدة والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وإن تعجب فعجب قول المتأخر منهم كقول أولهم إذ أنهم على مبدأ

واحـد وهى المخالفة لاجماع المسلمين ولا اهتمام لهم إلا بالزيارة للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وآل بيته من الأولياء الصالحين رضى الله تعالى عنهم أجمعين ويضمون إليها كل مخالف لإجماع المسلمين ويسمون كل من يقوم بشيء من ذلك مشركا . وها هى كتبهم المطبوعة الآن التى ساعدوهم على طبعها ونشرها وأغدقوا عليهم الأموال المعارضون للدين الإسلامى فى مبدئه وهم ألد أعدائه المستعمرون الآن .

فيقولون فى طعنهم أن زيارة النبي والأوليـاء كعبادة الأصنـام ويستدلون بقول الله تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فيقيس الزائر للوالى على عابد الصنم ولا يقول بها إلا كل غر أخرق . إذ القياس على ما قرره علمـاء الأصول شرطة أن يكون الفرع مشتركا مع الأصل فى علة الحكم وقياسهم زيارة الوالى على عبدة الأصنام قياس مع الفارق — يقولون بهذا القياس فى الزيارة ويحرمونها فى قياس الطواف حول الضريح على الطواف حول الـكعبة مع أن أصل علة الحكم واحدة حول الـكعبة للبركة وكذا حول الضريح ويحرمون تقبيل الضريح مقرين تقبيل الحجر الأسود مع أن تقبيل الحجر عبادة وما عداه عادة وهى سنته تعالى التى جعلها خالق المعانى والصور علامة على الحب وإلا حرم علينا تقبيل الأولاد والأزواج والأحباب وما أظن قول الشاعر العربى إلا رداً على هؤلاء وهو :

أمر على الديار ديار سـلمى
فألثم ذا الجدار وذا الجداراً
وما حب الديـــار شغفن قلبى
ولـكن حب من سكن الديارا

وحب الأولياء نافع . لأن المرأ يحشر مع من أحب . وأولياء الله

تعالى هم عباده الذين قال فيهم (من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب ولا يزال عبدى يتقرب إلى بأزيد مما افترضته عليه حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ورجلا فبى يسمع ويبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه) الحديث . فقد منح الله تعالى عباده هؤلاء تلك المنح التى منها استجابة دعائهم وتحقيق مطالبهم لأنفسهم أو لغيرهم . وفى الحديث الشريف (رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره فى قسمه) الحديث . فأين الأصنام من هؤلاء .

على أن الزائر للولى يزوره لأنه من أحياء الله تعالى وهو لا يغفل على أن الله وحده الفاعل الذى لا استقلال لمخلوق يفعل دون فعله فأين عباد الأصنام من هذا الذى يتوسل إلى الله بنعم الله ؟ إذ التوســـل بنعم الله إلى الله جاء به القرآن الكريم والسنة المطهرة فلا سبيل إلى إنكار ذلك .

على أن التوسل قد ثبت فى الدين الإسلامى . حتى بالبهائم . فى باب صلاة الاستسقاء . وهو لا يخفى على جاهل — ثم لماذا أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ؟ هل كان ذلك السجود لشخص آدم ؟ كلا . أنه لم يكن إلا لمن منحه الله تعالى من نعمة الروح . قال تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) . وفى قوله تعالى (إذ يوحى ربك إلى الملائكه أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب) أكبر برهان على التوسل ، وإلا فلماذا لم يفعل الله ما أراد بدون معونة الملائكة ؟ ! ومن البرهان على جواز التوسل حتى بالغائب المرجو مجيئه المجزوم بقبوله عند الله تعالى قوله عز من قائل (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به

فلعنة الله على الـكافرين) . فلمْ يعب الحق سبحانه عليهم التوسل . إنما عابهم في عدم الإيمان به .

وأظنهم يقولون بجواز التوسل بالأحياء . وأما الأموات فقد انقطعت صلتهم بأهل الدنيا . تلك العقيدة الضـــالة التى تعارض صريح القرآن الذى فيه أن الـكافر حى فى قبره أحيا من حياة الدنيا قال تعالى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون) ولذا لما يرى ذلك الـكافر يقول (ياليتنى قدمت لحياتى) فهى الحياة الحقة الواسعة وما أظن أن عطاء الله الـكريم لعبده فى الدنيا قد سلبه إياه فى الآخرة فلا يستجيب له فى الآخرة !! ولا أظن ذلك بعد قوله تعالى (وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) . بل لا يقول به أحد — ويجهل أن حياة الانسان الأخرى وهو من حياته الأولى . وهو فى الآخرة أقرب إلى ربه منه فى الأولى وهو يعلم بأحوال أهل الدنيا ويعرف زائره ولا بد أن يجيبه ويكرمه بالدعاء له رجاء أن يحقق الله مطلوبه والله تعالى أخبر أنه يستجيب له . وليس من الـكرم أن يسلبه ما أولاه من النعم . وكل ذلك بلا شك لا يكون إلا وفق ما عنـده تبارك وتعالى ولا استقلال لمخلوق بفعل حياً كان أو ميتاً دون فعل الله تعالى وقد وسعنا وفصلنا كل شيء فى محله وسيأتى إن شاء الله .

ومن أهم انـكارهم تشنيعهم على الموالد التى جاء بهـا القرآن والسنة وما أجمع عليها علماء المسلمين إلا لذلك وقد أفردت لها باباً استوعب كل شيء فيه وسيأتى إن شاء الله — وأيضاً انـكارهم على المحمل الذى كان مسبباً لنـكبة الوهابية . راجع تاريخ مصر . وقد أفردت له بابا أيضاً . وما أجمـــع علماء المسلمين على جواز شيء إلا وله أصل فى الدين على ما سيتضح لك فى محله إن شاء الله . ومن أهم انـكارهم اعتراضهم على

النذر للأولياء لأنه فى عقيدتهم لغير الله تعالى بقياس من ينذر بمن يعبد من دون الله وهذه لا شك أنها عقيدة الضالين وأما عقيدة المؤمنين فإن النذر فى مقابل نعمة · وهى الكرامة . أو الحب . وصاحب النعمة هو الله تعالى فيكون النذر له تعالى وإن كان باسم من جعله الله تعالى مظهراً لتلك النعمة كما سمى الله تعالى الكثير من موجوداته بأسماء لا تنصرف إلا إليها والمراد هو سبحانه وتعالى وكما قال صلى الله تعالى عليه وسلم (مسجدى هذا) . وفى الحديث القدسى (عبدى لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه) الحديث .

وللكاتبين الآن فى الجرائد والمؤلفين لرسائلهم والمحاضرين لهم فى الإذاعات ينشرون تلك المبادىء الخاطئة المخالفة كما عليه إجماع المسلمين وبتوفيقه تعالى قد وفيت المقام فى كل مخالفتهم بالردود عليهم بالأدلة العقلية التى لا يستطيعون ردها ولا يجدون نقضها بحوله وقوته تعالى المستفادة من الأدلة النقلية · الكتاب · والسنة · والإجماع . والقياس . والاستنباط · وبها إن شاء الله تعالى أحملهم على الرجوع إلى الحق والصواب ما لم يكن أحدهم غلبت عليه شقوته فيكون من قوله تعالى (ومن يضلل الله فما له من هاد) ·

وأما من جعل الله تعالى فيه القبول والاستمداد للخير فيكون من قبيل قوله تعالى (فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب) .

ومن أعجب الأمور التى تستفز نفوس العقلاء أنهم يأتون بالأباطيل الدالة على استغراقهم فى الجهل أو التمويه أو التضليل على البسطاء من المتعلمين وغير المتعلمين فى ضلالاتهم التى خرجوا بها عن إجماع المسلمين ومرقوا بها من الدين اجماع . ويقولون : هذا ما عليه المسلمين سلفا وخلفاً

وهذا منهم كذب محض وزور وبهتان لأنهم قد أخذوها ، من قول أهل الحق الذين يردون به عليهم بعد بيان البرهان والدليل القاطع على مايقررونه ولهم الحق فى ذلك وبه يقولون . لأن لهم على اجماعهم البراهين المحققة سلفاً وخلفاً وما عرف ذلك إلا عند قولهم فى المتشابه الذى رأوا أهل السلف فوضوا العلم فيه الى الله تعالى . والخلف قالوا هذه أمثلة تقريبية للعقول البشرية كاليد بالنسبة له جل وعلا . والعين . والرجل . والنزول . والمجىء . فأولوا فيه . وقد اتفق أهل الحل والعقد على أن السلف من صدر الصحابة إلى الخمسماية سنة ، والخلف من ذلك الحين إلى مالا نهاية فى كل زمان بحسبه هذا .

وهم أين سلفهم . وخلفهم . أما سلفهم فكانوا لا يستطيعون الظهور مع أهل الحق الحريصين عليه الذين كانوا لم تخل منهم بقعة من بقاع الأرض قائمين عليه إلى السبعماية والثمان والعشرين سنة حتى بدأ الضلال المقابل للحق فى الظهور عما كان مخفياً من صدر الصحابة إلى ذلك الحين وقد قوبل أهل هذا الضلال بما أزهق باطلهم وأخزاهم فى فى الدنيا قبل الآخرة كما لا يخفى على من له أدنى اطلاع . وعلى هذا التقدير السابق المتفق عليه من خير الأمة الإسلامية . ليس لهم سلف وحيث كان كذلك فأيضا ليس لهم خلف . فكيف يضللون البرءاء من عباد الله بقولتهم هذه الشنيعة . ولا سلف لهم إلا ما كان مخفياً من الضلال طوال مدة السلف . ولا خلف لهم الا من تراهم الآن ينعقون بتلك المخالفات التى يشققون ويفرقون بها بين للمسلمين الذين هم على الفطرة السليمة (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) .

ومن أغرب أمرهم فى البدعة

ومما تستنكره العقول من أمرهم — أنهم يقولون فى كل شىء لم يكن فى عهده صلى الله تعالى عليه وسلم : انه بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار !! وهذا القول ظاهر البطلان . لأن البدعة تنقسم إلى خمسة أقسام فنها ما هو واجب كتعلم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعة وغير ذلك من العلوم والفنون والصناعات . ومنها ما هو مندوب كتصنيف كتب العلم . وبناء المدارس . والحصون وغير ذلك . ومنها المباح كالتوسع فى المآكل والملابس وغير ذلك . ومنها المحرم والمكروه ، وهو ما ليس له أصل فى الدين .

ومع حكمهم هذا على كل مالم يكن فى زمنه صلى الله تعالى عليه وسلم تراهم لا ينكرون المستحدث من المخترعات بجميع أنواعها : فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض .

فانه لا يجهل عارف ولا ينكر عاقل ولا يغفل من له قلب يعى . أن مبدع الكائنات جل وعلا أحدث ما نرى فى العاديات من الموجودات التى لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم وقد جاء القرآن الكريم مشتملا على بيانها من مخترعات فى الصناعات وغيرها من كل أنواع المبتكرات .

فكيف لا يكون كذلك فى الدين وخاصة بعد علمهم بقوله تعالى (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) وقوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) وقوله تعالى (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) وقوله تعالى (ويخلق مالا تعلمون) وقوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دراهم حتى يأتى وعد الله) وقوله تعالى (وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة

من سجيل) فهذه الآيات تتضمن بيان المحدث المتنوع فى العاديات : من الراديو . والفوتوغرافيا وما هو على شاكلة الفلك كالوابورات وكالقنابل بكافة أنواعها وكالطائرات .

وأما محدث الدين فهو فى الآية الجامعة من قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) الآية . وإليك قوله الشريف فى حديثه الجامع المانع الذى أوتيه صلى الله تعالى عليه وسلم من جوامع كلمه الشريف وهو (تحدثون ويحدث لكم) فاذا كان هذا بيان القرآن الكريم والسنة المطهرة فى كل أنواع المحدثات ولا ينكر هذا المحدث فى العاديات إلا الأعمى بصر أو بصيرة . فكيف ينكر المحدث فى الدين (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

ولا ينكر عاقل ما فى قوله تعالى (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) والمشاهد أن مثل الفلك المشحون من حاملات المنافع لبنى البشر من جهة الى أخرى . لم يوجد إلا بعد . ولكن لما كان محقق الحصول منه تبارك وتعالى لا محالة . عبر عنه جل شأنه أنه حصل بالفعل فى (خلقنا) على يد عباد لم يكونوا وقت ذاك . ولكن بصنعه البديع جل وعلا قد خلق علماء فألهمهم الابتكار والتوسع فى صنع كل ما هو حاصل الآن على شاكلة (الفلك المشحون) ولا يتصور عاقل أن كل ما أحدث من المحدثات الآن الكونية والفعلية على يد علماء مؤهلين موفقين للقيام بهذا التنويع والتفنن المشاهد المعاين الذى لاينكر . وغيره كثير من أنواع أفراد المنوعات من المحدثات . وإذا كان كذلك .

فبالأحرى والأجدر أن يخلق تعالى للأمور الكلية الشرعية وجزئياتها

المندرجة تحتها من الأمور التى لا يتم الـكمال إلا بها . علماء يستنبطون منها ما يكون مندرجاً فى أصل علة الحـكم ومساويا له فى التشريع . وإلا فـكيف يسلمون بمحدثات الصناعات ويجحدون ما يحدث فى حكم التشريع وقد جاء به القرآن الـكريم والسنة المطهرة . كما جاء بهذا المشاهد المعاين الذى لا سبيل إلى انـكاره . أليس هذا من الترجيح بلا مرجح ؟ ! بعد أن عرف أصل كل من الدين ولم يظهره الحق عز وجل إلا على يد عباد شاء تبارك وتعالى إيجادهم بعد . كما قال تعالى (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحـكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) فقد بين العزيز الحـكيم أنه لم يمنع فضله عن عباده فى أى زمان كان — ومن لم يفهم ذلك ويعمل به فقد ضرب الله تعالى له المثل بقوله (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وهذا مما لا يخفى على ذوى العقول الراجحة أن هذا التنويع فى المبدعات التى لم تخرج عن حد الـكمال الذى جاء به القرآن الـكريم وبيان السنة المطهرة فيكون من أكبر الدلالات على معرفة الصانع جل وعلا الذى جرت العادة فى سنته تبارك وتعالى أنه يقلب الأشياء فى كل الأمور من قالب الى قالب . ولو جرى الأمر على عدم التجدد فى مستقبل الأزمنة لـكان ذلك مخالفاً لسنته تبارك وتعالى (ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) وبهذا المحدث المشاهد المعاين فى موجوداته تبارك وتعالى جاء القرآن العزيز متضمناً لها ومشتملا على كل فرد من أفرادها . فقد جعل لـكل شىء منها أصلا وجعل من ذلك الأصل فروعا تتنوع منها أنواعا كثيرة . وهذا مما لا سبيل إلى انـكاره .

فكيف لا يكون لأصول الأحكام الشرعية فى كل حكم منها فروع وهى التى سبق لنا التعبير عنها بالجزئيات المندرجة تحت الكليات فى (أكملت لكم دينكم) التى لا ينكرها ويجحدها إلا كل مخالف لا يعرف أصول دينه ولا يفهم لكلام رب العالمين معنى لتفصيله ولا لبيان سيد المرسلين معنى لتبيينه (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى) وسيأتى الكلام بأوسع من هذا فى البدعة والمبتدعة إن شاء الله تعالى .

الفصل العاشر

فى حكمة تقديم الأدلة العقلية على النقلية

نذكر لك بتوفيقه تعالى حكمة تقديمنا الأدلة العقلية على الأدلة النقلية ، فى الكلام على الضلال وأهله أولا :

لأن الانسان إذا عرف الضلال ، ويريد العدول عنه فإنه لا يرى بعده إلا الحق ، وإذا عرف الضالين ومبادئهم فليس بعدهم إلا المهتدون . ولنا فى ذلك أسوة بالحق عزوجل . إذ ابتدأ سبحانه وتعالى فى معرفة توحيده جل شأنه : بالنفى أولا ، ثم بالإثبات ثانياً . قال تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فقد نفى جل شأنه كل باطل ، وأثبت أنه الغنى المفتقر إليه جميع ما عداه ، وكذا فى عبادته تعالى أيضاً بقوله جل وعلا (يا أيها الناس أعبدوا ربكم) إذ لا تعقل العبادة وانفراد المعبود بحق بها إلا بعد التخلى عن كل ما سواه .

وكذا أيضاً فى جميع حاجيات ابن آدم ومستلزماته الدنيوية ، ألزمه إثبات فاعليته جل وعلا فى كل شىء ، ثم أردفه بابتغائه الوسائل فى كل شىء بحسبها .

قال تعالت عظمته : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) فبين جل شأنه : أنها أى الوسيلة لا تكون إلا بعد التقوى ، وهى عبارة عن ترك الباطل أولا ، وملازمة الإذعان للحق ثانياً .

وعلى هذا جاء بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم فى السنة المطهرة كما فى حديث الفزارى الذى سيأتى :

ففى هذه الآيات وبيان السنة تمام البيان محجة الاقتداء ، بتقديم الكلام على معرفة الضلال المنفى أولا ، ثم تثبت الحق لأهله ثانياً ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه : الحق لا يعرف بالرجال ، « أعرف الحق تعرف أهله » .

ولله الحمد ففى كل ضلالة من الاثنتين والسبعين : ترى الكلام مفتتحاً ببيان محوها أولا . وإثبات الحق ثانياً والله يحق الحق ويبطل الباطل . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحجة البالغة

لا نزاع فى إجماع العقلاء من علماء الأمة سلفاً وخلفاً . على أن لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال ، إذ لا تصديق إلا بعد التصور ، وقد لفت الله نظر عباده إلى ذلك فى كثير من آى الذكر الحكيم ، وفى بيان السنة المطهرة كذلك قال تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) ولا تعقل العبادة إلا بعد الإيمان بوجود المعبود وهو الخالق للكائنات ، وقال تعالى : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) ولا شك أن المراد بقوله تعالى : بالحكمة : أى بالبرهان والحجة . فكانت الدعوة إلى الله تعالى بالحجة والبرهان . وهو مأمور بها صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله تعالى : (وجادلهم بالتى هى أحسن)

فكان الجدال مأموراً به أيضاً . ثم إنا مأمورون باتباعه صلى الله تعالى عليه وسلم لقوله تعالى : (فاتبعونى يحببكم الله) ولقوله تعالى : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) فثبت أننا مأمورون بذلك الجدال ، وقد جاء فى لفت النظر قوله تعالى : (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) الآية : وقوله تعالى : (وفى أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله تعالى : (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) الآية . وقوله تعالى : (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء) الآية . وقوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لأولى النهى وقوله تعالى : (إن فى ذلك لآيات لأولى الألباب) .

وهاك ما أجاب به صلى الله تعالى عليه وسلم السائل بالبرهان العقلى والقياس : إذ روى فى الصحاح بالسند لأبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : « جاء رجل من بنى فزارة إلى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ان امرأتى وضعت غلاما أسود . فقال له : هل لك من أبل ؟

فقال : نعم : قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر .

قال : فهل فيها من أوراق ؟ قال : نعم .

قال : فأنى ذلك ؟ قال : عسى أن يكون قد نزعه عرق .

قال : « وهذا عسى أن يكون قد نزعه عرق » .

فهذا هو التمسك والإلزام بالقياس وغير ذلك كثير فى الكتاب والسنة فى أن الدليل العقلى مقدم على الدليل النقلى . وها كم الأثر المشهور عن سيدنا على رضى الله تعالى عنه . السالف الذكر قريباً . ومن لم تطرق الحجة عقله لا يسلمها ولا يصدق بها .

ولو أنى حاججتهم بالقرآن والأحاديث فقط ، كالأفاضل السابقين ، لأولوا معانى الآية إلى ما يفهمونه لطمس بصائرهم ، ولا يسهل علينا

التخلص منهم ، ويقول الواحد منهم : أنا مستريح لفهم هذا المعنى فى الآية والآية تعطيه — ولكن — حين ألزمه الحجة بالدليل العقلى ، ويلمسه ، ويصبح موقناً به ، ويصير لزاماً عليه ، أن لا يفهم إلا هذا ؟ — أطبق عليه الآية الكريمة فيجزم بها ويروى أنها سبقت لبيان هذا المعنى المراد ، فلا يجد عنها محيصاً فيؤمن بآيات ربه — ويفهم أسرار كونه .

هذا والحمد لله تعالى قد وفق الكثير على يدى من طلاب الحق لفهم الحقائق . أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب .

وأما من غلبت عليه شقوته ، وقد جعل الله تعالى على سمعه وبصره وقلبه أغشية . فمالى به ؟ (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون) .

وكذلك لو حاججتهم بالحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تخرج بنتيجة أيضاً ، لأنه إما أن يطعن فى الحديث من طريق السند أو ينكره أو يؤول معناه ، كما هو شأن إمامهم ومتابعيه ، والضـال ومقلديه ، ومن على شاكلتهم ممن اتبع هواه ، فلا تنتج فائدة ، بل ربما قال : هذه أدلة ظنية لا توصل إلى اليقين ، أو هذا ما أراه فى معنى هذا الحديث ، ولى رأيى ولك رأيك .

هذا وقد وفقنى الكريم الفياض جل شأنه فى أكبر نضال وقع بينى وبين صنديد من صناديدهم وطال استماعه للأدلة العقلية ، وكنت اضرب له الأمثال بالموجودات المشاهدات لصدق ما أقرره له وكبير الفائدة والبرهان على فساد ما يدعونه ، واثبات آيات الله تعالى فى الموجودات من الجمادات والنباتات والحيوانات وأسرار الله تعالى فيها . وأوازن له بين كل جزئية من جزئياتها ، وبين بعض أفراد الإنسان الذى هو محل نظر الحق من هذا الخلق ، فلم يستطع دفع هذه الموازنات

بأى حال من الأحوال ، فقام بحمد الله تعالى موحداً عارفا بربه عز وجل عارفا بأباطيل الملحدين ، وصرت أراه بعـــدها زائراً لآل بيت النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الصالحين .

وفى ضربى لهذه الأمثال أسوة بالحق جل وعلا . قال تعالى : (وتلك الأمثلة نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) الذين يتدبرون الأشياء على ما ينبغى . فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه لما تلا هذه الآية . قال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعتـــه واجتنب سخطه » ا هـ بيضاوى . فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون .

هـــذا وقد رأيت جميع من وفقهم الله تعالى للقيام بالرد على هذه الفئات الضـــالة ، أتوهم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى لا تـــكاد تحكم إلا بأنها نص فى قطع ألسنتهم . أو تقول : علم الله تعالى ، بأن هؤلاء سيظهرون ، فى وقت كذا ، فى صفات هى كذا ، يدعون كذا ، فجاء بالقرآن كاشفاً عن حالهم وكذا علم حضرته صلى الله عليه وسلم النبوة بأنه ستظهر الفرق الضالة التى حدث عنهـــا وعن تعيين الجهات التى تخرج منها وعن مبدأ ظهورها ، فحدث عنهم بما يكشف عن حالهم ، وبالرد على مفترياتهم ، وبما تبطل به حجتهم . ليحق الله الحق ويبطل البـاطل .

ومع ذلك كله تجدهم يكابرون ويؤولون ويحروفون الـكلم عن مواضعه ولم يقتنعوا بتلك الردود الـكثيرة التى أدلى بهـــا أفاضل علماء الأمة وجها بذتها فى كل عصر ، ممن لهم القدم الراسخة فى الدين ، ولهم تمام الإلمام بسنة سيد المرسلين ، المؤيدين بالسواد الأعظم من خيار الأمة المعصومة من الضلالة ، التى مضى عليها ، وعلى صفوها الذى لم تـكدره أية شائبة نحو سبعمائة سنة تقريباً . وقد أتى هذا الجامع لـكتب المخالفين

وقال بها، وكان جزاؤه مالاقاه فى الدنيا بدعوى أنه يجدد للأمة أمر دينهابأباطيله محتميا فيمن كتبوا ممن سبقه بما هو أوهى من بيت العنكبوت . وسيظهر لك الحق واضحاً وجليا إن شاء الله تعالى .

كان لزاما على ، والأجدر بى ، أن لا أهتم بشأنهم كالكثير ممن يعبئوا بهم ، ويقيموا لهم وزنا حتى فى الوجود كباقى الفرق الضالة المارقة من الدين ممن خلقهم العليم الحكيم لحكم يعلمها هو عز وجل قال تعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) .

راجع تفاسير الآية تجد كأنها ما نزلت إلا لبيان حالهم وحال من على شاكلتهم وبيان مآلهم قال تعالى (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) .

وأنى كنت متردداً بادىء ذى بدء لعدة أمور ولكن لما نظرت فيما أكرمنى به الحق عز وجل ، وأفاض على من رحمته الواسعة . بالأدلة العقلية التى لم يسبقنى بفضله تعالى بها سادتنا الأفاضل المتقدمون تلكم الأدلة التى لا يمكن لبشر نقضها ، وهى أقطع فى الحجة والبرهان لهم ومحو مفترياتهم من هذا الوجود إن شاء الله تعالى ، حتى لا تقوم لهم بعدها قائمة ، وقد وفقنى وأعاننى على أن أصدع بها الكريم الفياض فأردت أن أنظم نفسى بتوفيقه تعالى فى سلك الأفاضل السابقين رجاء أن أكون فى تعداد العلماء المجاهدين امتثالا لأمر الصادق المصدق صلى الله تعالى عليه وسلم وتحقيق أمر الكريم الرحيم وابتغاء رضوان رب العالمين فهو حسبى ونعم الوكيل .

بالتوفيق الإلهي وبنور الإيمان . وحق اليقين . قد جمعت فيها ما تفرق من المعقول والمنقول . وأحصيت ما تبعثر فى أمهات الأبواب وشوارد الفصول فمن ألم بها تكفيه فى صحة الإيمان . وتصرفه عن كل ما فيه خيبة أو خسران .

ولنبدأ لك فيها بعقائد المخالفين . وهى أساس شقوتهم وسبب انحرافهم وخروجهم عن الحق الصريح . وهى قطب عمود الرحى الذى ترتكز عليه عقائد للموحدين وخروج الضالين المارقين عن إجماع المسلمين — وهى إنهم تارة ينفون نسبة الأفعال للموجودات البتة . وخاصة بنى آدم ومن التجأ إليها فى الأخذ بالأسباب منها . يعدونه مشركا — وتارة يثبتون لها أفعالا مستقلة . ومن التجأ إليها كان مشركا — وتارة يثبتون لها أفعالا تعود على فاعلها وحده لا تتعداه إلى غيره — وتارة يثبتون لها أفعالا تتعداها إلى غيرها وهى حية حياة الدنيا . وأما بعد الموت فلا . ومن التجأ إليها بعد الموت . فقد أشرك والتجأ إلى غير الله تعالى — وتارة يعتبرون الموت عدما وفناء وانقطاعا عن أهل الدنيا — وتارة نعتبرون ما بعد الموت حياة يسمونها حياة برزخية . لكن أهلها مشغولون بما عملوا قبل الموت . إما نعيم . وإما جحيم . وهذا كله جهل بسنن الحق تبارك وتعالى . وما أرشد عباده إليه فى كتابه العزيز .

وأما أهل الحق فيقولون أن الله تعالى قد أثبت لمخلوقاته من نبات وجماد وحيوان وملائكة وكواكب وغيرها . أفعالا وجعلها تبارك وتعالى تؤدى النفع لبنى آدم فى كل ما خلقت له بالتسخير والتوفيق الإلهى لها . وهكذا سنته تعالى فيما أجراه على يد خيرة خلقه وهم الأنبياء والرسل

عليهم الصلاة والسلام ليقتدى بهم فى الأخـــذ بالأسباب وإتيان البيوت من أبوابها .

فها هو آدم عليه السلام أبوالبشر الذى أسس الأعمال فى كل شىء بالأسباب بتعليم للملائكة له كل شىء فى الأخذ بالأسباب وقد نسج من بعده بنوه على منواله : وبالتوفيق الإلهى والإلهام الرحمانى توسعوا فى تلك الأصول وتفهموا فيما يتنوع فى كل شىء بحسب أصوله وهكذا فى الازدياد إلى مالا نهاية حتى الآن والمستقبل مابقى الزمان وهاهو أول رسول عورض فى معرفة الله تعالى والرسالة . نوح عليه السلام . لما ضاق ذرعا ويئس من إجابة دعوته . أمره تعالى بالسفينة فـــكانت له آية — وصالح عليه السلام . كانت الناقة له آية — وهود عليه السلام . كانت الدعوة له آية — ولوط عليه السلام . كانت الملائكة له آية — وابراهيم عليـــه السلام . كان ركونه إلى الله تعـــالى والبرهان العقلى له آية — وسليمان عليه السلام . كان الريح والملك العظيم له آية — وشعيب عليه السلام . كانت الدعوة له آية — وموسى عليه السلام . كانت العصى له آية — وعيسى عليه السلام . كان إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص له آية — وخاتم الأنبياء والمرسلين وسيد العالمين سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم . بالمؤمنين والنصر العزيز لحضرته والقرآن المجيد آية .

ومن أهم ما تجب معرفته أن الله تعالى قد أسند إلى خلقه الأفعال فى كل شىء بحسبه حتى الشيطان (فأنساه الشيطان ذكر ربه) . الإتيان بالدخان للسماء . والسير للجبـــال و السحاب والجرى للشمس . وكذا اختص سبحانه بعض مخلوقاته بتحقيق المطالب كالوقوف بعرفة والطواف حول الـكعبة والقبلة فى صحة الصلاة . وأرشد سبحانه وتعالى عباده إلى هذه الأسباب لإدراك المطالب بها ومنها (واسألوا الله من فضله) .

أى مما قربه إليكم وجعله بين أيديكم ولا تنسى أن أنبياءه تعالى ورسله عليهم الصـــلاة والسلام أسندوا الأفعال للموجودات كما قص تعالى علينا ذلك فى محكم كتابه مما قدمنا وسنبين ولم يغفلوا عن أنه الفاعل المختار بتلك الأسباب ولا ضير فى ذلك بعد قول جبريل عليه السلام وأسناده فعل الله تعالى لنفسه (لأهب لك غلاما زكيا) وفى قوله تعالى (فأردت أن أعيبها) . وفى قوله تعالى (بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين أخوتى) . وفى قوله تعالى فى قصة موسى عليه السلام) قال هذا من عمل الشطان) . وغير ذلك كثير من الآى التى لا يخفى على كل ذى عقل راجح أن فى كل آية من الآيات المتقدمة التى اختص تعالى بها أحبابه معنى يغاير الأخرى . وقد وجه تعالى نظر عباده إلى كل ذلك فى مختلف الآيات البينات الكونية والقرآنية — وخاصة فيما فيه منفعتهم من مصالحهم الشخصية الدينية والدنيوية والأخروية .

وإذا كان تبارك وتعالى اختص بعض أفراد الموجودات التى ينتفع بها بنو آدم وقد خلقها تعالى وسخرها لهم . أفلا يكون الإنسان الذى خلق الله له تلك الأشياء وسخرها لنفعه أولى أن يختصه بالفيوضات والنفحات والبركات وهو أعلى المخلوقات وأكرمها على الله . وإلا فكيف نعرف ولا ننكر مزايا أفراد النبات والحيوان والجماد ولا نعترف بمزايا أكرم مخلوق على الله تعالى . ومما لا ينكره عاقل أن كلا من النبات والجماد والحيوان الذى خلق للإنسان لينتفع به فى حياته الدنيا . قد جعل تعالى فيه النفع بعد موته فى حياته الأخرى أوسع من نفعه الأول وهذا مما لا شك فيه وقد ضربنا له الأمثال فى غير ما موضع .

ولا يخفى على كل عاقل أن الواضع لفنون الطب هو الحق سبحانه وتعالى على يد أنبيائه ورسله عليهم الصـــلاة والسلام وهو لم يخرج

عن إرشادهم إلى العقاقير والأخذ من المولدات الثلاث وقد جعل فيها الشفاء لكل من طلبها ويحقق بها رجاء قاصدها كما قص تبارك وتعالى علينا فى كتابه العزيز (اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب) (ويخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس) (زيتونة مباركة) وفى بيانه الشريف صلى الله تعالى عليه وسلم ما دونه أصحاب السنن والمسانيد فى كتبهم وخصصوا فيها كتب الطب . وهكذا سنة الله تعالى فى خلقه . ونهج الناس عليها . وتوسعوا فيها بالمقارنات والموازنات حتى أصبحت علوما جمة تقصدها ذوى الحاجات من مصادرها وبإرشاد المتخصصين لها وفيها — أفهل من يقصد العقار لحاجته فيه يكون كمن أشرك بالله تعالى ؟ وهل يتوجه إلى الطبيب المتخصص فى فن من فنونه يكون متوجهاً لغير الله تعالى : أو مشركا . وهل من يقصد آثار صفات الحق عز وجل فى موداته يكون مشركا أو هل من يقصد ما أرشد الله إليه عباده وبين تعالى أن فيه البركة أكثر من غيره وتوجه إليه عبده الذى خلقه له وسخره له يكون متوجهاً لغير الله تعالى ؟

نعم أن هذه عقيدة الضالين الخارجين عن إجماع المسلمين الذين يظنون أن للعباد وخاصة بنى آدم أفعالا مستقلة عن أفعال الله تعالى — وهى عقيدة كل ضال ظان بالله ظن الظنون . أضلها جهله بمعرفة الواحد المعبود المنفرد بالإبداع فى كل موجود (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) الذى أوجب معرفته تبارك وتعالى على بنى آدم قبل معرفة كل شىء حتى إذا ما عرفه سبحانه وتعالى عرف آثار صفاته التى بها يعرف جل وعلا — إذ هذه الآثار لم تخلق عبثا مجردة خالية عن صفات خالقها . إذ بها يعرف سبحانه وتعالى وبها تظهر أعمال عباده التى ظاهرها لهم لقصر عقولهم عن إدراك حقائقها وباطنها له وعز وجل (والله خلقكم

وما تعملون) فهو المنفرد بالإبداع والإيجاد على اختياره كما شاء ويشاء — ومن يقل بغير ذلك فهو على قدم إبليس الذى قال للشافعى رضى الله تعالى عنه : أرأيت من خلق كما اختار وسيركما اختار ثم يقضى إلى النار هل عدل فى ذلك أم جار — فقال رضى الله تعالى عنه — إن كان خلقك كما يختار وسيرك كما يختار فهو الفاعل المختار — فاضمحل إبليس وقال والله لقد أخرجت بها سبعين ألف عابد من مقام العبودية .

فمن رأى أن للعباد أعمالا مع الله مستقلة . فهو على قدم إبليس ، ومن يعتقد أن الوجود كله به ومنه إليـــه وهو الفعال لما يشاء فهو المؤمن الموحد .

على أن الذاهب للولى كالذاهب للعقار أو الطبيب أو إلى أى أثر من آثار صفات الحق عز وجل . وهل الذاهب لهذه الآثار أليس ذاهبا إلى الله تعالى . ومنها تعلم أن النذر لهؤلاء هو لله تعالى لأنه لا يكون إلا فى مقابل نعمة فهو لصاحب النعمة . ومن صاحب النعمة غيره تبارك وتعالى ؟ فالنذر وإن كان باسم مصدر النعمة ظاهراً فهو باطناً لمصدرها . كالحج والطواف حول الـكعبة وغيرها مما قدمنا .

ومن يقل غير ذلك فهو المشرك الذى لم يميز بين خالقه ومخلوقاته . يجعل المخلوق مستقلا كالخالق . فالقائل بذلك هو على قدم غير أهل الإجماع من المؤمنين المسلمين وهو من أحد الفرق التى قدمنا . ولا يغرنك كونه ذا لقب أو وســـام أو مظهر يغر الجاهلين . فلن يحيدوا عن قدم الأولين الذين هم على قدم المنشىء الأول للمخالفة والمقارنة .

ولا يغرنك قولهم هذه مسألة خلافية . لأنه لو كان عالماً أو عارفاً أو متعلما لعرف أن الحق واحـــد وأهله واحد ولا خلاف فيه . وإنما الخلاف لا ينشأ إلا عن مضاد معارض للحق ولا خلاف بين أهل الحق

وإنما من خالفهم وفارق إجماعهم فهو المخالف — ولقد أحسن من قال :

وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر

وإن قال جاهلهم أن الخلاف بين الأئمة الأربع فقد جهل تأسيس دينه وسنن الله فى تكوينه .

إذ مبدع الكائنات جل وعلا العالم بمكوناته بما كان منها وما يكون جعـــل دينه الخالد ما بقيت الدنيا على ما يتناسب مع عباده — فجعل التشريع على يدى خاتم أنبيائه ورسله صلى الله تعالى عليه وسلم مناسبا لكل عامل به ومنه فأجرى التشريع فى الحكم الواحد أنواعاً ليسهل على كل آخذ منه ما يصلح له مع الراحة وصار كل من أخذ من ناحية من أنواع التشريع فهو من التشريع .

ولما وفق سبحانه عباداً من عباده لتدوين هذا الدين الخالد لمن سيجيء بعد وبالتوفيق الإلهى فيض أيضاً لكل واحد من هؤلاء الأئمة من روى له عن سيد العالمين نوعاً من أنواع التشريع فى الحكم الواحد بالطريق الموثوق به الذى ارتضاه له طريقاً — وهكذا الإمام الآخر — وهكذا غيره حتى تم جميع ما شرعه صلى الله تعالى عليه وسلم وبينه لعباد الله تعالى . وصار كل ما دون عنهم هو من بيانه الشريف ولا خلاف فى هذا البيان بل هو بعضه أسهل من بعض لعباد الله تعالى وعلى هذا لا خلاف بين الأئمة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين .

تم بحول الله وقوته وحسن توفيقه الجزء الأول من فيض الوهاب ويليه الجزء الثانى وأوله الباب الثانى فى تفصيل الردود عليهم . ومبدؤها فى الإلهيات .

عبد ربه سليمان
من علماء الأزهر الشريف

ننشر فى ختام هذا الجزء للسيد الأديب الشاعر محمد كامل عبد العظيم يوسف هذه الدرة شاكرين له أدبه وفضله . قال :

هذا حقاً من فيض الوهاب

مولانا الأستاذ الأشهر الشيخ عبد ربه سليمان :

طالعت كتابك ، فألفيته أطروفة فى بابه . دل اسمه على مغزاه ، وأعرب عنوانه عن فحواه ، فلك من الله الشكر .

روح وريحان بروح ويغتدى ... ومضاء عزم كالشهاب الموقد
سفر يريك الحق أبلج ناصعاً ... فيه الشفاء لغلة القلب الصدى
نبع النبوة فاض بين سطوره ... فأضاء منبلجاً بهدى (محمد)
يا كاسى الإسلام حلة سؤدد ... (يا عبد ربى) يا شريف المقصد
لله أنت فمكرماتك جمة ... كل العفاة لها تروح وتغتدى
بوركت أنت كتبت أبلغ آية ... للمسلمين بهمة لم تخمد
ونسخت ما كتب الذين تصايحوا ... من ترهات فى الورى لم تحمد
جددت من ذكر الصحابة ما انطوى ... ورفعت ذكرك فى عراص الفرقد
وأعدت من عصر النبوة ما مضى ... لما أعدت لنا حديث المسجد
فإذا أتيت الى « الحسين » فحيه ... عنى تحية شيق متوجد
وألثم تراب القبر وانثر حوله ... زهراً وتلك حفاوتى من عسجد
جبريل ثالثكم وعين « محمد » ... ترنو إليكم من بقيع الغرقد
لا غرو إن ينكر سناة حاسد ... فالشمس تنكرها عيون الأرمد

* * *

إنى بلوت الكاتبين جميعهم ... فوجدت قولا فى الحضيض الأوهد
من حاد عن قصد فإنك قاصد ... أوشك فى دين فإنك مهتد
تأبى النعيم ملطخاً بمذلة ... وترى مقام السوء عاراً للغد
عش ، للحديث وللنبى وآله ... تبنى ، وغيرك للمخازى يرتدى

فهرست

الموضـــوع	رقم الصحيفة